٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٨٠٧

٨٠٧

جامعة أم القرى / مكة المكرمة
عمادة شؤون المكتبات
قسم المخطوطات
UMM AL-QURA UNIVERSITY MAKKAH

١٠٢٧٩٣ ل

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا
شعبة الأدب والنقد

****

الاجتماعيات عند حافظ ابراهيم

تحت اشراف

فضيلة الشيخ الدكتور / أحمد الشرباصي / المحترم

إعداد وتقديم

نصر الدين أحمد / هندى

سنة ثانية • ماجستير

عام ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا حافظ

المولود على صفحة النيل

المولد الشعرى اللطيف ،

اليتيم ، البائس ، الحامى ، الضابط .

صاحب الفكاهة الحلوة والنادرة الظريفة ،

ارتاد كل مجلس وحضر جميع المحافل ،

طرق كل أبواب المجتمع ودخل جميع دور الاجتماع ،

جالس كل مجمع وتجول فى جميع ميادين الجمع ؛

فخرج منها شاعرا اجتماعيا .....

" بسم الله الرحمن الرحيم "

كلمة البحث

الحمد الله رب العالمين ، والصلوة والسلام على سيدنا افضل المرسلين ، وعلى أهله وصحبه أجمعين ، وبعد ،

فقد عهد إلى أن أكتب بحثا - حيث انى طالب بقسم الأدب والنقد (كلية اللغة العربية) المقيد فيه للدكتوراه (السنة الثانية) -

وصراحة كان صعبا على أن أبحث عن موضوع بنفسى ، بالإضافة إلى ضيق الوقت ، وعدم توافر الامكانيات اللازمة ، فاخترت موضوعا من ضمن الموضوعات المحددة ، وهو " الاجتماعيات عند حافظ ابراهيم " لكونى معجبا به أشد الإعجاب ، ولكونه شاعرا مصريا صميما ، وممثلا عن المجتمع المصرى ، ولسانا وصوتا لشعب مصر العريق .

وإذا بحثت عنه فلمحت فيه : شخصية فذة ، عبقرية نادرة ، قلما يجود بمثلها الزمان .

- فإن حافظ حر منطلق مع من بحريته ، لا تحجزه القيود كما تحجز كثيرا من الشعراء الذين عاصروا حافظا . فوجدت فيه وضوحا أكثر من الغموض ، وصراحة أكثر من التملق ، وإخلاصا أكثر من النفاق ، وإنسانية أكثر من الشاعرية . و ...

* وهو ولد على صفحة النيل المولد الشعرى اللطيف .
* وهو يتيما ، ثم هاجر إلى خاله فكان بائسا .
* لم يجد حظه من التعليم .
* حاول أن يكسب رزقه بيده ، واختار مهنة المحاماة فلم ينجح فيها .

* كما لم يوفق فى عسكريته ، وتزوج فلم يدم زواجه أكثر من أربعة أشهر .
* كان ذا ثقافة محدودة متواضعة جدا فلم يضمن له وظيفة حكومية .
* التحق بدار الكتب فلم يكن موظفا قط ، ولم تكن له التزامات الموظف قط .
* كان يائسا ويائسا ، أحس يتمه وحرمانه فى الحياة فضاق بنفسه وتقم على الدهر .
* كان ابن البلد الأصيل ، مزاجه فكهاً باسماً فكان يتناور ، ويدرك موضع الفكاهة من كل ما يعرفه ، ويخترع النكت من كل ما يدور حوله ، فضحك على بؤسه وشقائه فى الحياة ، وراح يضحك مع الناس ويسخر بهم ويتندر عليهم حتى صار نديما لكل مجلس .
* وكان ذا نفس شاعرة حساسة وحس مرهف ، وشعور رقيق . فأحس بحمق بؤسه وأخذ يبث شكواه فى كل مكان ، وراح فى مجموع شعره يبكى حظه البائس ، وحظه أمته التعس ، كما اشتد بغضه من الإنجليز .
* وهو كان يعاشر جميع طبقات المجتمع ، ويشترك فى أفراحهم وأتراحهم ، وكان إنسانا كبير النفس قبل كونه شاعرا أو فنانا — قلبه يفيض بالحب والعطف على البؤساء والمحرومين — فأحس مآسى قومه كما أحس مآسى الأقوام الاخرين .
* وهو عاش حقبة من الزمن حافلة بالتقلبات ، والأحداث ، والحوادث ، والتطورات المختلفة المتنوعة .
* فإنه ساح بعمقه فى جميع الأحداث ، وقال شعرا عاطفيا فى جميع المناسبات وتحدث عن المجتمع من كل ناحية .

* فمن كل هذا كله أصبح شاعرا اجتماعيا • اكتسب شعبية دون منازع ولقب بشاعر النيل •
* وكان شعره صورة صادقة من طبعه ونفسه وعواطفه •
* وهو في شعره يجزل اللفظ ويحسن الاسلوب •
* كان ثمرة ناضجة من ثمرات الثقافة الكلاسيكية • وهو يمتاز في شعره بقوة البلاغة • وإشراقة الديباجة وطلاوة الأسلوب •

تزين معانيه ألفاظها
وألفاظه زانتها المعاني

كان هذا كله ملخص ما بحثت وقرأت عنه •

هذا •• وانني حاولت بذل كل مجهودي لأعطي لهذا البحث المتواضع حقه إلى حد ما استطعت — وأخيرا أدعو لنفسي بالتوفيق والسداد • كما أدعو للأستاذ المشرف المحترم بالصحة الموفورة والفيض الدائم •

والله الموفق والمستعان ••

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تلميذكم

فخر الدين أحمد / هندي

مدينة البعوث الإسلامية — القاهرة

تحريرا في ١٩٧٢/٦/١

مولـده

****

كان يقيم فى إحدى بلدان الصعيد "ديروط" حوالى ١٨٧٢م طائفة من المهندسين المصريين للإشراف على القناطر القائمة على النيل ، وكان من بينهم مهندس مصرى صميم ، يسمى إبراهيم فهمى مهندس الرى بقناطر ديروط ، اختار لسكناه سفينة (ذهبية) ترسو على شاطئ النيل ، وأقام فيها مع زوجته التركية "الست هانم" أو السيدة هانم أحمد البوصة لى (كما ذكرها الآخرون) .

وهناك فى تلك الذهبية الراسية عند الشاطئ رزقهما الله ولدهما على صفحة النيل (محمد حافظ) فتفرغ به الأبوان حيث كان ثمرة حياتهما وقرة أعينهما .

وكان ذلك إرهاصا لطيفا ، وإيماءا أنيقا إذ شاء القدر أن يولد شاعر النيل على صفحة النيل المولد الشعرى فى مطلع الثلث الأخير من القرن الماضى .

وسمى هذا المولود بمحمد حافظ ، فقد ظل صاحبه يحمل مدلوله حتى موته ، فكان محمد حافظ إبراهيم أكثر الناس حفظا . (١)

وقد اختلف فى تحديد تاريخ ميلاده ، فإن حافظا يقرر عند تعيينه فى دار الكتب سنة ١٩١١ م أنه ولد فى الرابع من فبراير سنة ١٨٧٢ م ، ويشك فيه الدكتور أحمد محفوظ ، لأن حافظ إبراهيم ذكر تاريخ ميلاده عند التحاقه بالخدمة فى دار الكتب المصرية ، وذلك واضح ، رجاء أن يطيل أيامه فى الوظيفة لينعم بالراتب المربوط عليها .

---

(١) حياة حافظ ابراهيم ، أحمد محفوظ ص: ٦

وإن إسماعيل يوسف يقول : لم يعرف بالضبط تاريخ مولده ، وقيل إنه ولد فى عام ١٨٧٢م مستندا إلى الكشف الطبى الذى أجرى للشاعر عندما أريد تعيينه فى دار الكتب . (١)

هذا وأحمد الطاهر يرجح أن حافظا ولد سنة ١٨٦٩ . (٢) ويؤيد هذا الترجيح أن قصائد حافظ التى قالها فى سن العشرين — على ما يزعم — قصائد رصينة الأسلوب غنية بالألفاظ المنتقاة ، ولا يمكن أن تطاوع اللغة الرفيعة الشاعر إلا بعد الممارسة الطويلة ، والنظر فى كتب الأدب كما لا تستجيب الألوان لريشة الفنان إلا بعد المعاناة والخبرة ، وطول المران ، فليس من الجائز لفتى فى العشرين أن ينظم بهذه الرصانة فى الأسلوب مهما أوتى من موهبة . (٣)

---

(١) وحى الأدباء — كتاب وشعراء . إسماعيل يوسف . ص : ٨٤

(٢) محاضرات عن حياة حافظ إبراهيم . أحمد الطاهر . ص : ٩

(٣) حياة حافظ إبراهيم . أحمد محفوظ . ص : ٧

حياتـه

وعلى أية حال • كان والده إبراهيم فهمى مصريا خالصا له زوجة من أسرة تركية الأصل تعرف بالأسرة المصروان نسبة إلى ربها الذى كان أمير الصرة فى الحج (١) وكانت زوجة متواضعة فعاشت معه حياة قانعة راضية وزاد حياتهما بهجة ذلك القادم الصغير الذى خطا خطواته الأولى فى أرجاء الذهبية معتمدا على أساسها ومستندا إلى جدرانها •

هل كان هذا الطفل الصغير وحيد أبويه ؟ •

فالحقيقة أن كل من كتب أو أرخ حياة حافظ لم يذكر أنه كان له إخوة • ولكن كاتبين خالفا الجماعة فى هذا فذكر دكتور محمد صبرى فى مقاله بمناسبة المهرجان الفضى لحافظ عبارة جاء فيها "وجدت فى حافظ أوراق المرحوم محمد رفعت ابن اخت حافظ • (٢)

ويقول الاستاذ أحمد محفوظ "لعب الطفل الوحيد ••• وأعقبته أخت أنسمه بها الطفل الذى بلغ الثالثة من عمره • (٣)

هذا وإن الدهر لم يلبث أن قلب للأسره ظهر المجن فاذا الأب يموت • والإبن يخطو على عتبة السنة الرابعة • فانتقلت به أمه إلى القاهرة ونزلت على دار أخيها محمد نيازى الذى نهض فى مروءة وشهامة حيال أخته ويتيمها • فحاول أن يرأب صدع نفسها المحزونة وقام على تربية حافظ مقام الأب الشفيق •

ولما بلغ حافظ وأهلته السن لبدء التحصيل والتعلم ألحقه خاله بالمدرسة الخيرية كان مقرها القلعة • وكانت مكتبا تعلم فيه حافظ القراءة والكتابة وطرفا من العربية والحساب ثم انتقل الطفل إلى مدرسة ابتدائية كان التعليم فيها أرقى مستوى • وتحول إلى مدارس مختلفة كان آخرها المدرسة الخديوية الثانوية •

---

(١) حافظ إبراهيم ماله وما عليه • د • كامل جمعة • ص : ٣٠

(٢) ص ١٠ كتاب المهرجان الفضى لذكرى حافظ نقلا عن حافظ ماله وما عليه •

(٣) ص ٧ حياة حافظ ـ أحمد محفوظ •

وكانت نفس حافظ متفتحة بمواهبها لتعلم اللغة وآدابها (١)

ولو استقر حافظ بمدرسة الخديوية ونال شهادتها لضمن وظيفة وعملا كتابيا رتيبا بأحد دواوين الحكومة ، ولكن الأقدار أرادت أمرا آخر ، فتحولت مجرى حياته ، من حيث انتقل خاله محمد نيازى إلى طنطا ، ولم يكن فى قدرته المالية آن يستبقى حافظا بالقاهرة لإتمام دراسته الثانوية ، فصحبه معه ، وحل حافظ بطنطا وعمره ستة عشر عاما تقريبا .

وقد تعرف به هناك الشيخ عبد الوهاب النجار الذى كان طالبا بالمعهد الأحمدى فيقول الشيخ النجار : عندما عدت من القرشية إلى طنطا رأيت إخوانى وأصدقائى يلوذون بفتى غض الإهاب ، جديد الشباب ، وقد أسرعوا بتقديمى إليه ، وتقديمه إلى باسم الأديب الشاعر محمد حافظ إبراهيم ، ولم تمر إلا عشية أو ضحاها حتى أحسست فى نفسى ميلا إليه يجاذب من الأدب الذى كان تهمة نفسى حتى آل ذلك إلى غرام بأدبه وما يشتمل عليه من ظرف ولطف ومحاضرة ، وبديهة ، ومطاوعة وسرعة خاطر ، وحضور نادرة . (٢)

ويقول الشيخ عبد الوهاب النجار قد قضينا رمضان (سنة ١٣٠٥ هـ) مصليا المغرب والعشاء والتراويح معا ، ثم نثبث فى سمر ممتع ومطارحة للشعر ، ومذاكرة فى نوادر الأدب الى ما يأتى وقت السحور . (٣)

---

(١) ص : ٣٢ حافظ ما له وما عليه ـ د . كامل جمعة

(٢) ص : ٦ـ٧ مقدمة ديوان حافظ ابراهيم للأستاذ أحمد أمين

(٣) ص : ١٣٢٧ مقال للشيخ النجار نشر فى مجلة ابوللو عدد يوليو ١٩٣٣م

كان الفتى وهو فى هذا السن يأخذ نفسه بالقراءة الكثيرة فيما ملكته مواهبه يحفظ الأشعار الجيدة ويربى نفسه من المطالعات ، ويسمر مع أصدقائه ، لا عمل له ولا مدرسة إلا مدرسته التى أنشاها بنفسه لنفسه وكان فيها وحده المعلم والمتعلم واستمر حافظ فى تغذية ملكته ومواهبه حتى عرف بين زملائه بالفصاحة والبيان إذ هو كان يسمر بمحفوظه من الشعر مع أصدقائه من طلاب المعهد الأحدى فى طنطا وهكذا استطاع حافظ منذ فجر شبابه أن ينشئ بنفسه لنفسه مدرسة بعد فشله فى المدارس التى دخلها .

ومما لا شك فيه أن حافظا فى هذه السن راح يقرض الأشعار فيعلو حينا ويهبط حينا بجناحين ضعيفين وثقافة بسيطة ثم تصقلها الدراسة المنظمة وكان المنهج الأول الذى استقى منه ثقافته ، كتاب "الوسيلة الأدبية" وهذا الكتاب فى الحقيقة يحتوى على مادة درسة لنحو اللغة وصرفها ، ولفنون من بلاغة العرب وأمثالهم وأشعارهم ، ومختارات من دواوين فحول الشعراء منذ الجاهلية حتى عصر الكتاب . أضف الى ذلك أن الكتاب تضمن الكثير من ديوان البارودى . ولا شك أن حافظا المعلم والمتعلم قرأ هذا الكتاب مرات ومرات واتخذه صديقا لا يفارقه ، فصقل به ذهنه وروض به حافظته ، وشحذ به لسانه .

ظل حافظ على هذا الحال لا عمل يتكسب منه فلم ينل شهادة تضمن له وظيفة حكومية ، بل اتخذ لنفسه من قراءة الأدب علما ومن رية الشعر صديقا ورفيقا .

فضاق خاله وزوجه ويئس من إصلاحه حتى سئمه ، وكثيرا ما دب الخلاف بينهما ، وأخيرا قرر الفتى أن يهجر بيت خاله بعدما أحس بأنه كل على خاله ، فعزم أن يلقى بنفسه فى خضم الحياة يطرق أبوابها ولما انتهى به الحال إلى هذا القرار كتب إلى خاله هذين البيتين :

كتب إلى خاله هذين البيتين :

ثقلت عليك مئونتي ... وإنـي أراهـا واهـية
فافرح فإنـي ذاهـب ... متوجـه في داهـية

وهذا شعر ساذج في سن الصبى ، ولكنه يكن عاطفة قوية حزينة ، موقف أليم في بيت خاله يذكره دائما بيتمه تخدمه ويصور له دائما بؤسه وشقاءه ، وهذا يفسر لنا ما كان في نفس حافظ من حزن دفين وألم كامن على الرغم على سطحها من ضحك وسرور (١)

وهكذا هرب الفتى المسكين من فقره وبؤسه وحزنه وخاله إلى ساحة الأدب ليستظل بأشجارها الوارفة ، فوجد فيها ملاذا ومهربا مما أناخ عليه الدهر ومما طبعت عليه نفسيته من التشاؤم والإحساس بالانكسار ـ فكان الفتى يترنم بهذا التشاؤم الذى أصابه ليعزى نفسه ويعوضها ، ومن قوله حينئذ متبرما بالزمن من أحداثه متمنيا لو يوافيه الحمام :

عجبت لعمرى كيف مُدّ فطالا ... وما أثرت فيه الهموم زوالا
وللموت مالى قد أراه بعيدا ... وجل مرادى أن أوسد حالا
فللموت خير من حياة أرى بها ... ذليلا وكنت السيد الفضالا

ماذا يصنع وقد ضاقت به السبل وعضه الفقر ؟ لقد أبى أن يأكل من بيت خاله فمن أين يأكل ، لم يكن يحمل شهادة تسوق إليه وظيفة تدر عليه مرتبا مضمونا ، وكل بضاعته أنه نال قسطا من العلم والثقافة فهى المتفرقة .

وكانت المحاماه في مصر في ذلك الوقت مفتحة الأبواب لكل واج ، لا تضع

---

(١) ص : ٩ مقدمة ديوان حافظ للأستاذ أحمد أمين

٨٠٧

شرطا ما من يريد أن يلج بابها سوى أن يكون قوى المهاجاة يستطيع القارع والقهر الخصم ولعل حافظ رأى أنه طلق اللسان وأحس فى نفسه ذلاقة اللسان وقوة البيان وهو مداور محاور — وعرف أن المحاماة تدر على صاحبها إذا نجح مالا يدر عليه التعليم إذا نجح ، ففضل أن يكون محاميا ، واحترف هذه المهنة ولكن إنى له أن يشتغل بمكتب فهو الرجل المعدوم المفلوك الرث البال المنغمس فى الفقر البشع . فقصد أحد المحامين وهو الشيخ محمد الشيمى المحامى بطنطا واشتغل عنده فى مكتبه . وكان عمله هذا يضطره إلى السفر إلى المحاكم الجزئية القريبة من طنطا لمرافعة بعض القضايا . ثم اختلف مع صاحب المكتب فتركه كما هو ترك له بيتين وهما :

جراب حظى قد أفرغته طمعا ... يباب أستاذنا الشيمى ولا عجبا

فعاد لى وهو ملوء فقلت له ... مم؟ فقال من الحسرات واحربا[1]

فأسف الشيمى لخروجه وحاول استرضاءه وعودته إلى العمل فى مكتبه فلم يقبل[2]. ثم انتقل بعد ذلك إلى مكتب محمد أبو شادى بطنطا وهناك وجد جوا يوافق هواه إذ كان الأستاذ أبو شادى يعشق الأدب ويحب الأدباء ، فوجد فى حافظ ضالة وكنوا ثمينا ، فكانا يتساجلان بالشعر ويتناوران بطرائف الأدب إلى أن خرج حافظ من مكتبه إلى مكتب فهيم المحامى ومكث عنده مدة من الزمن ، ثم طوته الملل ، وكان مكتب الهلباوى يجاور مكتب عبد الكريم فهيم بالوكالة التى جعلت فيما بعد المعهد الأحمدى ، فكان كثيرا ما ينتقل حافظ إلى مكتب إبراهيم الهلباوى الذى كان يسر

---

(١) ص: ١١٢ ج: ٢ الديوان

(٢) ص: ٣٦ حافظ ابراهيم ماله وماعليه . د . كامل جمعة

بحديثة وأدبـــه . (١)

وهكذا لم تطمئن نفس حافظ على المحاماة ولم ينجح فيها ، وفى رأى الاستاذ أحمد أمين . (٢)

فالمحاماة تتطلب عكوفا على درس القضايا وكتابة وقائعها ، ووضع مذاكراتهـا ، وليس حافظ بالصبور على ذلك . فهو يجيد الكلام ويجيد الدفاع ، ولكنه لا يجيد البحث والكتابـة .

ثم كان فتى غـرا . فهو فى السادسة عشر أو السابعة عشر ، لم تحنكـه التجارب ولم تعلمه الأيام ، حينما كان همه أن يستعرض ديوان شعر يقع عنه على ما يرضى ذوقه فيرتسم فى حافظته وأما العناية بكتب الفقه والقانون ومراجعتهـا ، واستخراج الحكم منها ، فعمل لم يألفه حافظ ولم يدرسه ولم يتذوقـه ، ثـم هـو ملول لا يشتغل فى مكتب واحد حتى يمله وهى خصلة لا تنجح ، كالتاجر يفتح كـل يوم دكانا فى مكان ثم يغلقها ليفتحها فى مكان آخـر ـــ وأخيرا ، وهـو متلاف ، ينفق كل ما تصـل إليه يده ، فـلا يستطيع أن يقتصد ما يمكنه من فتح مكتب يعتمد فيه على نفسـه .

وليس من شك فى أنه نظم أبانا اشتغاله بالمحاماة شعرا ، ولو قد وصل إلينـا هذا الشعر لكشف لنا الغطاء عن حقبة حية من تاريخ حياة صاحبنا قضاها فى طنطـا فى مؤتنف حياته ، ولكنه ـ مع الأسف ـ قد طمر إهمال حافظ مع ما طمره من أشـعاره كثيرة لـه .

---

(١) مقال عبد الوهاب النجار ـ مجلة ابوللو سنة ١٩٣٣ مجلد ١ ص : ١٣٢٤

(٢) مقدمـة الديـوان لأحمـد أمين ص : ١٠ ـ ١١

فطلق حافظ هذه المهنة بعد عام قضاه في معاناتها حين لاحت له في الأفق بارقة أمل جديد . ذلك أنه في سنة ١٨٨٧ م أعلنت المدرسة الحربية عن وجود أماكن خالية بها لقبول دفعة جديدة ، ففكر في هذا وهداه تفكيره إلى السفر إلى القاهرة عام ١٨٨٨ م ليلتحق بالمدرسة الحربية وقد دفعه إلى ذلك أمران ، أولهما : أنه أراد أن يضمن لنفسه رزقا منظما يأتيه كل شهر وثانيهما : أنه كان معجبا بالبارودي أشد الإعجاب ، وكان يعتبره مثله الأعلى وقدوته الحسنة ، فأراد أن يكون رب السيف والقلم مثله . يطير ذكره في الآفاق ، وتُلقى إليه مهام الأمور ، وكانت المدرسة الحربية في ذلك الحين لا تشترط للالتحاق بها شهادة خاصة ولا ثقافة معينة أكثر من اللياقة البدنية والقدرة على دفع ١٥ جنيها في العام . وكان حافظ فارع الطول متين البنيان ، فاستطاع أن يلتحق بها في سهولة ويسر . دخل حافظ المدرسة الحربية وفؤاده يكاد يثب من شدة الفرح ، لأن دخولها كان منتهى ما يتمناه كما يقول الشيخ عبد الوهاب النجار . (١)

وبعد سنوات تخرج حافظ عام ١٨٩١ يزهو بحلته العسكرية وعلى كتفه نجمة وفي جنبه سيف ثقيل ، وقد ضمن رزقا ثابتا يجري عليه كل شهور .

واختلف في مدة بقائه في المدرسة الحربية . فكتب أحمد محفوظ : خرج حافظ بعد تسعة شهور . (٢)

بينما يقول د . كامل جمعة : انه قضى أربع سنوات حتى تخرج فيها سنة ١٨٩١ م وأضاف قائلا : ويخطئ من يقول إنه قضى بها تسعة

---

(١) مقال الشيخ عبد الوهاب النجار . مجلة أبوللو عام ١٩٣٣ م

(٢) ص : ٢٣ حياة حافظ ابراهيم . أحمد محفوظ

شـــــهور . (١)

كما قيل أنه قضى فيها ثـلاث سـنوات .

فعلى كل حال تخرج حافظ فى المدرسة الحربية وأصبح ضابطا برتبة الـملازم الثانى يختال فـى بزتـة العسكرية ، وبقى فى وظيفته بالقاهرة ثلاث سـنوات قضاها مغتبطا بمظهره الخارجى ، مزهوا بشهه العسكرى .

ثم أعاد الجيش حافظا للداخلية التى عينته فى وظيفة ملاحظ بمدينة بنى سـويف وكانت الوظيفة لا تلائم طبعه ، فهو يكره النظام والدقة والمسئولية ، وهى الصفات اللازمة للجندى ، وسرعان ما أصبح حافظ شقيا بهذا العمل ، ضائق الذرع بقيوده ، فاذا لم يكن حافظ راضيا عن هذه الوظيفة فأعادته الداخلية إلى الجيش وعد ذلـك أحيل على الاستيداع بسبب كسله وتراخيه فى أداء واجبه . (٢)

ثم سافر إلى السودان حينما احتاج الجيش الى ضباط يرافقون (كتشـــنر) فى ذهابه لفتح السودان والقضاء على ثورة المهدى .

وكان منطقة عمله السودان الشرقى ، فلم يكن فى السودان الشرقى الذى نزلـه حافظ إلا الوحشـة لروحة التى كانت تألف الأنس دائما ، فتهرم حافظ من عملـه بالسودان ، وأكثر من الشكوى إلى أصدقائه وعاوده داء الملل القديم ، ولا يسعنـا المجال فى هذا البحث الوجيز أن نذكر كل ما جرى فى حياته بالسودان والخلاصـه أنه لم يطق جو السودان ، ولا جفاء العيشة فى السودان ، فتحسر على أصدقائـه فى مصر وليالى الأنس بها وجوها البديع وعيشها الناعم كما يدل ذلك على شـعره فـى هذه الفترة :

---

(١) ص : ٣٦ حافظ ماله وما عليه ـ د . كامل جمعـة .

(٢) ص : ٤٠ ـ ٤١ ملخصـا من نفس المصدر السـابق .

قال فى ذلك يصف حاله : (١)

وما أعذرت حتى كان نعلى ... وما وسادتى وجه التراب

وحتى صيرتنى الشمس عبدا ... صبيغا بعد ما دبغت إهابى

وحتى قلم الإملاق ظفرى ... وحتى حطم المقدار نابى

متى أنا بالغ يا مصر أرضا ... أشم بتربها ريح الشباب

وأفادته أيام علمه فى المحاماة فاستغلها فى السودان ، فقد عرف بين إخوانه بقوة الحجة ، وحسن البيان ، فكان كثيرا ما ينيبه الضباط المتهمون فى الدفاع عنهم أمام المجالس العسكرية ، وإنما اختتمت حياته فى السودان بحادث كاد يؤدى به فقد حدثت ثورة فى السودان اتهم فيه ثمانية عشر ضابطا ، كان من بينهم حافظ فحوكموا وأحيلوا الى الاستيداع . وكان ذلك فى مايو سنة ١٩٠٠م (٢)

إذن فقد أصبح صاحبنا متعطلا من جديد بعد أن سلخ من عمره سنوات فى السودان خرج بعدها براتب قدره أربعة جنيهات ليس غير .

ولقد أثر هذا فى نفسه تأثيرا قويا فملأها يأسا ، وخالطها شيء من الخوف فصمت صمت الرهبة ، وإن بعض الباحثين (٣) يذهبون إلى أنه قد مر بهذا الحادث مرا عاديا ، فلم يعبر عن ثورته إزاء الظلم الذى وقع عليه ، غير أن هذا يجافى الحقيقة وقد يكون ما قال كثيرا ، ولكنه كتم ما قال توقيا للشر ومخافة ازدياد الظلم وقد صرح بذلك فقال :

إذا نطقت فقاع السجن متكأ ... وإن سكتت فإن النفس لم تطلب

---

(١) الديوان ج ٢ ص ١٢٢

(٢) حافظ ماله وما عليه د . كامل جمعة ص ٤٥

(٣) شوقى ضيف ـ دراسات فى الشعر العربى المعاصر ص ٩٠

وليس يعني هذا جبن حافظ إبراهيم فهو يمتاز بالصراحة والشجاعة ، بل إنهما أبرز خلاله ، ولكن حافظا كان حصيفا ، وكان يحول الثورة العنيفة إلى ثورة هادئة أو متقطعة تهدو على فترات . فهو يعلم أن من الخير أن يظل ثائرا هادئا حتى لا يقطع لسانه مرة واحدة . فهو يصطنع المداورة قاصدا " ونحن لا نستطيع أن نقدره قدره الصحيح إلا إذا عرفنا أن بطش الاحتلال كان على أشده ، وأن الانجليز كانوا يشهرون قانون المطبوعات على رقاب المصريين من زعماء الحزب الوطني وغيرهم ، وكم ملئوا السجون بالأحرار "(١)

وحافظ في كل هذه الأطوار التي مرت بنا في حياته قلق ضيق بعيشه ، فقد نشأ يتيما في أسرة متوسطة لم يوفق في تعليمه ، ثم لم يلبث أن اضطر إلى كسب قوته بنفسه فلم يوفق في محاماته ولم ينجح في عسكريته ، وكانت شاعريته قد استوت له وكان ذا نفس حساسة وإحساس مرهف وشعور رقيق ، فأحس يعمق بؤسه وأخذ يبث شكواه في كل مكان ، ويملأ الأرجاء ضجة بأنه بائس وبأنه أديب أدركته حرفة الأدب . ومن يتصفح ديوانه يرى شعر البؤس عنده يرجع إلى سنة ١٩٠٠م غالبا ، وهي السنة التي ترك فيها السودان إلى مصر . أخذ حافظ في هذا الوقت يلتمس لنفسه طريقا في الحياة يعيش منه ، فحاول أن يشتغل في صحيفة الأهرام ولكنها أغلقت أبوابها من دونه ، وكان ذلك بالرغم من مساعدة الخديوي والشاعر أحمد شوقي . فلبث حافظ دون عمل متعللا بأذيال الفقر والحاجة فعاد يغني بؤسه ـ ويظل حافظ يشكو أيامه وقومه ، ويرميهم بأنهم مقصرون في حقه .

وكان حافظ وهو بالسودان يراسل الأستاذ الإمام محمد عبده ، فلما عاد أخذ يغشى مجلسه وزاد اتصاله به ، وعطف عليه الأستاذ وأنهله من علمه ـ حتى يقول :

---

(١) دراسات في الشعر العربي المعاصر . شوقي ضيف ص : ٩

فلقد كنت ألصق الناس بالإمام ، أغشى داره ، وأرد أنهاره والتقط آثاره .

وقد تعرف عن طريقه على الطبقة الممتازة من المصريين أمثال سعد زغلول ، وقاسم أمين ، ومصطفى كامل ، ومحمود سليمان ، ولطفى السيد ، وعلى يوسف كما عرف محمد فريد والبارودى وخليل مطران وحفنى ناصف . فاستطاع أن يكون صداقات مع وجوه الشعب وألسنته الناطقة وصحفه السيارة ، وكسب منهم معلومات عن القضية الوطنية . وهم كانوا يعملون من أجل الإصلاح السياسى والاجتماعى والدينى والثقافى ، فقبس منهم الآراء السياسية والاجتماعية التى إستطاع أن يكون له فيها رأيا خاصا فيما بعد ، وأفرغه فى قوالبه الشعرية ، فإذا بشعره يقتحم الآذان يوما بعد يوم ، وتسير به المجتمعات ، وتنشره الصحف ، فيردده الخطباء ويتغنى به الناس ، إلا أن هذا الكسب المعنوى لم يرافقه كسب مادى يعتمد عليه ، فظل فقيرا معوزا منذ عودته من السودان سنة ١٩٠٠م وظل ملازما للأستاذ الإمام يقتبس أفكاره فى الدين وتعاليمه ، فقد اتخذه مثله الأعلى حتى توفى عام ١٩٠٥م (أسكنه الله فى فراديس جناته) وزادته بؤسا وفراغا فكانت وفاته عظيما عليه .

وفى ظلام هذه الوحدة النفسية التى خلفها له موت أبيه الروحى ألحت أمه على الزواج فلبّى رغبتها بعد المماطلة الطويلة ولذلك قامت السيدة هانم أحمد البورصة لى والدته بمهمة البحث عن العروس حسب تقاليد الماضى . فراقتها العروس فى منزل إسماعيل يحى طبيدين فاستسلم رغبتها وأعجابها دون أن يراها .

وأحس حافظ بفجيعة فى نفسه عند ما تطلع الى عروسه فلم يعجب منظرها بل ضاقت نفسه بمنظرها الجهم وأنفها الضخم . والعروس كما وصفها لصديقة أحمد محفوظ كانت فتاة ضخمة جهمة قد رفعت فوق مقدم رأسها نصف دائرة من الشعر

الملوى ، وخطت على حاجبيها خطين عريضين تقاطعهما نقطة . (١)

فلم يدم زواجه أكثر من أربعة أشهر ، وعاد حافظ إلى حياته الأولى . حياة الحرية والانطلاق والجلوس فى المقاهى بين الأصدقاء .

وقد سأله ذات مرة الاستاذ مصطفى صادق الرافعى : هل أحب ؟؟؟ فقال : (النساء اثنتان : فإما جميلة تنفر من قبحى ، وإما دميمة أنفر من قبحها) (٢)

وهذا الرأى الصريح والتجربة المرة يفسر لنا هروبه من الزواج ، وإيثاره حياة المقاهى والأندية . فأصبحت داره الموحشة من غير ولد ولا زوج ، وحياته المضطربة من غير منارة ولا سرفا (٣)

ولم يعد إلى تجربة الزواج طيلة حياته ولا نعرف أثرا لإمرأة أخرى فى عيشه (٤) .

وبعد سنتين من هذا الطلاق توفيت أمه الكريمة بعد حياة قضتها مملوءة بالهموم والبؤس وضيق العيش ، كما توفى خاله محمد نيازى فى هذه الفترة .

وبقى حافظ بعد يتيماً ظلال الأصدقاء من ذوى الغنى والثراء ، ولكن هذه الحياة المضطربة القلقة التى لا يعرف لنفسه فيها دخلا ثابتا جعلته يضيق بها . ويئس من قومه لا يقدره حق قدره . إلى أن حقق أمنيته حافظ صديقه أحمد حشمت ناظر المعارف حينئذ فعينه رئيسا للقسم الأدبى بدار الكتب فى شهر مارس ١٩١١م سنة واغتبط حافظ بالوظيفة التى جاءته وهو فى الأربعين من عمره لأنه وجد فيها استقرارا واطمئنانا إلى لون من الحياة .

---

(١) ص: ٩٣ حياة حافظ . أحمد ابراهيم

(٢) كلمات عن حافظ ـ الرسالة ١٩٣٥ ص: ١٢٤٣ (مقال مصطفى صادق الرافعى)

(٣) ذكرى حافظ ـ الرسالة عدد ١٤ ص: ٣ (، أحمد حسن الزيات)

(٤) شاعر الشعب ، د . سامى الدهان ص ٣٨

ولقد أمضى مدة اشتغاله بدار الكتب يعيش خارج البيت لا يقضى به إلا سواد الليل فاذا طلع النهار انسل إلى المقاهى مع أصحابه وأصدقائه ، يقطع وقته فى جد القول وهزله ، ولقد عرفته مقاهى القاهرة دائم التردد عليها ، وكانت حياته تدور من مقهى إلى ملهى إلى نادى .

ولقد كتب حافظ كل شعره فى الخمريات فى هذه الفترة — ويقول عنه الدكتور زكى مبارك : إنه استطاع أن يتخلص من قيود وظيفته تخلصا تاما ، فكنت لا تراه فى دار الكتب المصرية إلا زائرا ، ولم يستطع الأستاذ لطفى السيد احتجازه فى الدار إلا فى اللحظات التى يحتاج فيها لمعاونته عند مراجعة ترجمة لكتاب الأخلاق . وكان — رحمه الله — يخرج من بيته فيظل ينتقل من ناد إلى نادٍ ومن منزل إلى منزل باحثا عن أصفيائه الذين ألفوا ما ينفحهم به من طيبات الأحاديث .

ويقول الدكتور طه حسين : إنه كان يقضى صباحه فى الدار يعبث بالموظفين ويتندر عليهم ، أو على باب الدار يدخن سيجاره الضخم ، أو فى قهوة دار الكتب يدخن الشيشة ، فإذا كان المساء انفق وقته بين أصدقائه فى الأندية الخاصة أو العامة (١)

وهكذا عاش حافظ ثلث حياته أكثر من عشرين عاما يتندر ويعبث وقلما عنى بعمله . فإن ملف خدمته مملوء بالإجازات المرضية وغيرها .

وكان فى جلساته بالمقاهى والمنتديات يتحدث مع أصدقائه فى السياسة وفى أحوال الشعب الاجتماعية ، ممازجا ذلك بالفكاهات والنوادر ، وكان أشد بغضا ونقمة على المستعمرين وسياستهم .

---

(١) حافظ وشوقى ، طه حسين ص : ٢١١

ومازال هذا شـــأنه حتى نشبت ثورة سنة ١٩١٩م ، فلم يبادر بإعلان الثورة علـــى الإنجليز خوفا على نفسه ووظيفته . ومع ذلك نشر قصيدة غير موقعة باسمه ، سخر من الإنجليز سخرية مرة . وأخذ يتصل بالأحداث ورجال السياسة ، ولـــــه مواقف وقصـــائد وطنية كثيرة منذ هذا التاريخ . وهكذا يصبح الموظف الســـاخر شـــاعر الشعب الثائر .

ويقول د . كامل جمعة (وقد لبث هذه الأعـوام العشرين وهو بدار الكـــتب يكافح ويجاهد من أجل شعبه . ويخطئ الذين يذهبون إلى غير هذا . ولـــو أمعنوا النظر في ديوانه لوجدوا كفاحا مستمرا في إصرار واتزان .) (١)

وأخيرا أحيل إلى المعاش في سنة ١٩٣٢ ، فانحلت جميع العقد التي كانـــت تعلق بلسـانه وأصبح خالصـا لشعبه ، ينازل الإنجليز وصنيعتهم صدقي رئـــيس الوزراء حينئذ . والذي أحال حافظ إلى المعاش ، ومازال يطعنه بشعره حـــتى توفي إلى رحمة ربه في نفس العام بعد خمسة أشهر من إحالته . وكان ذلك فـــي ليلة الخميس ٢١ يوليو سنة ١٩٣٢ م في منزلـــه بالزيتون . وشيعت جنازتـــه بحفاوة شعبية وسارت مصر وراءه يتقدمها أصدقائه الأدباء . نعـــاه صديقـــه مدير المطبوعات إسماعيل شيرين ورثاه على قبره الأستاذ العقاد والأســـتاذ محمد الهمراوي رحمه الله وتغمده بغفـــرانه وأسكنه فسيح جناته . آمين .

---

(١) حافظ ماله وما عليه . د . كامل جمعة ص : ٥٦

شخصـــــيته وبيئتـــه واخلاقة وثقافته

لقد استعرضنا حياة حافظ ، وما وقع له فيها من أحداث ، وينبغى قبل أن ندرس شعره أن نقف على أثر هذه الأحداث فى تكوين شخصيته وخلقه ، ونتبين آثار هـــذه العوامل التى مرت به فى تشكيل نفسيته ، وذلك حتى يتضح أثرها فى شعره عنـــد الحديث عنه .

ولا شك فى أن العناصر والمكونات التى تتكون منها شخصية شاعر أو عبقريته ترتبط بسبب وثيق ببيئته وطفولته وأحداث حياته ، فتكون شخصية وتشكل طبعا خاصا .

وتكيف سلوكا وتفكيرا وتعطى اتجاها الى فن ما .

ولقد عرفنا أن حافظ نشأ يتيما فقيرا ، لم يجد الظـلال الدافئة فى الأســـرة المستقرة ونتيجة لفقـــره ويتمه حرم من متابعة التعليم ، ولقد كان لهذه الفـــترة الابتدائية من حياته أثـر كبيرا فى طبعه نفسه بطابع الحزن والوجوم . فهذا التأثـر بالهم المبكر طبع حياته بسمة من الحرمان أثرت فى سلوكه وفى شعره كله بضروبـــه المختلفة ، وقد توالى عليه من أسباب البؤس ما عمق فى نفسه حيث أحس نفســه كلا على خاله وضاق به وبعد ما حاول كسب رزقه بنفسه واختار مهنة المحاماة فلم يوفق كما لم ينجح فيما بعد فى المهنة العسكرية ، ثم ما استراح فى زواجه وظل يحس بالوحدة والحرمـان كما اشتد بغضه من الانجليز بسبب سياستهم الاستعمارية . فهذا كله جعله يـــردد الشكوى من الدهر والحياة والناس وراح فى مجموع شعره يبكى حظه البائس وحظ أمتـــه التعس مع الانجليز واحتلالهم البغيض . وكانت ظاهرة القلق النفس والخـوف والحذر تلف تصرفه فى حياته ، وتعبيره فى شعره (١)

---

(١) ملخصـــا عن ص : ٦١ ــ ٧٢ (نفسيته) حافظ ما له وما عليه د . كامل جمعة

وإذا أخذنا نبحث فى شخصية حافظ الأدبية وجدنا عناصر مختلفة تشترك فى تكوينها وأول هذه العناصر : الدم المصرى الذى ورثه عن أبيه ، حقا كانت أمه تركية الأصل ولكن تركيتها لم تخلف أثرا واضحا فيه ، فقد غلبتها مصريته ، بل ولقد استبدت به وأصبحت كل شيء يجرى فى روحه ومزاجه ، حتى غدا مثالا حيا للمصرى فى عصره ، مثالا لروحه القومية ، ومزاجه الفكه الباسم ، وما تزال الصحف والمجالس تتناقل نوادره وفكاهاته إلى اليوم .

وأضاف إلى هذا العنصر الوراثى عنصرا عربيا من قراءاته للأدب القديم ، وكما تطاول طموحه منذ أخذ فى نظم الشعر الى مقام البارودى ، فقد حول إلى شعره صيغة الجزلة الرصينة ، وإن كان قد حاول تبسيطها (١)

ولقد كان لحياته المضطربة هذه أكبر الأثر فى قتل طموحه ، والتقصير به عن المجد الذى كان يحلم به " فوقف على الشاطئ" فلم يتعمق فى فلسفة ، وشغلته عن الدرس فلم يتكمل بثقافة ، كأن بداءة الأدبى بدأ اليوم ، وحياته المادية حياة الساعة (٢)

وقد اجتمع له إلى الاجانب هذه الاضطراب والقلق والإحساس باليتم ضيقة بالحياة المليئة بالحرمان الذى كابده منذ نشأته ، ضاق بنفسه وبالحياة كلها ، ونقم على الدهر ، وتحولت نقمته إلى استخفاف بالدنيا ، اذ أن برمه وضيقة تعبير سلبى عن ألمه . أما عدم الاكتراث بالحياة والسخرية منها فتعبير إيجابى .

ولهذا فقد راح يضحك طول حياته من شقائه وبؤسه ، أو يضحك ليعوض شقاءه

---

(١) ملخصا عن شعراء العصر . محمد صبرى . ص: ١٠٤

(٢) أحمد حسن الزيات . الرسالة . يوليو سنة ١٩٣٥ ص: ١٢٠٢

وراح كذلك يضحك من الناس ويسخر بهم ويعبث بمواضعاتهم ويتنذر عليهم حتى صار نديما لكل مجلس . فكأنه متوكل بإضحاك القوم الذين يجالسهم .

ما من شك في أنه كان شاعرا يائسا واديا يائسا وهمته الكوارث ، ودهته الحوادث فلم تجد له عزما ولم تصب منه حزما . (١)

فانما اتخذت حياته وشعره طول عمره مظهر البؤس والشكوى من البؤس . فكان دائما يشكو الدنيا والقدر ، ويشكو مصر والمصريين ويشكو ضياع الأديب وفقره وألمه .

والحق أن بؤسه مادي ومعنوي معا ، فهو لا يملك إيرادا ثابتا يكفيه وهو قلق مضطرب في حياته يركب كل يوم مركبا لا يشبه أخاه ، وهو كذلك لم يعرف الحنان في طفولته ولا صباه . وحرم الحب فما يذكر أن كانت له امرأة أحبها (٢) والطريف أن حافظا لم يصبه بؤسه بأي ضعف ، ولا أصاب نفسه بأي انكسار فقد كان قوي النفس ، شديد الشعور بكرامته موفور الإحساس بشخصيته يتندر على من حوله من الناس كبيرا كان أو صغيرا ، وكأنما اتخذ من نادرته وفكاهته التي اشتهر بها معينا صافيا يغسل فيه حظه التعس وبؤسه العميق .

ولم تكن الفكاهة وحدها هي التي يغرق فيها آلامه ومشاعره الحزينة . فقد كان يغرقها أيضا في الخمر وفي الشراب .

وكان كبير النفس يحس متاعس قومه كما يحس متاعس الأقوام الآخرين فهو إنسان قبل أن يكون فنانا . وقلبه يفيض بالحب والعطف على البؤساء سواء كان من قومه أو من بلد غريب عنه .

---

(١) ليالي سطيح ص : ٥

(٢) حافظ ما له وما عليه ، د . كامل جمعة ص : ٦٦

واخيرا ان حافظا الرجل قد سواه الله لا على غرار الشعراء ، فليس في تحولته ولا رقة مظهر ، ولا وسامة ولا قسامة ، فهو طويل ضخم ، عظيم الأنف ، متهدل الجلد على العنق والوجه ، وله شارب خفيف كشوارب الصينيين ، وكان يمشي منحني الظهر قليلا ، وكأنه يحمل هموم الدنيا على كتفيه . تراه وقد طالت أظافره واتسخت ملابسه ، إذ كان لا يستبدل قميصه بآخر إلا بعد الزمن الطويل . فهو في اتساخ أكمامه يشبه عاملا في مطبعة يوالي صف الحروف ، وطبع الأوراق ، غير عابئ بالمداد ولا بالزيت (١)

وكان لا يعنى بمظهره البتة ، فهو يترك رباط عنقه ينثني دون أن يكلف خاطره إصلاحه وهو يلبس الجورب أياما طويلة حتى إذا اتسخ تماما ألقاه واستبدل به آخر جديد . وكانت ثيابه غالية جدا . إلا أنها بإهماله كانت كأنها الأسمال البالية ولا أدري لإهماله مظهره سببا غير قوة شخصيته ، واستقلال تفكيره ، وانطباعه على عدم التقيد بشيء حتى التقاليد ومتابعة الناس بعضهم بعضا فيما يجمعون عليه .

فالناس معجبون بحضارة أوربا والتقاليد الأوربية . إما حافظ فانه طاف مدن أوربا فلما عاد منها ساخطا على تلك المدن والتقاليد (٢) ولقد لحق هذا الإهمال شعره فكان يكتبه على نتف من الأوراق تذوب بين أصابعه ، وكان أكثر اعتماده فيه على ذاكرته .

وكان يضيق بالصيف ، ويكره حر القاهرة ، وقد ترك جو السودان في نفسه عقدة نفسية ، فهو يلبس الأبيض الخفيف النسج ليتقي وهج الشمس وكان هذا الزي غير معروف عند أمثاله من الكهول في هذا العصر .

---

(١) حياة حافظ ـ أحمد محفوظ ص : ١٥٦

(٢) داود بركات ـ ابوللو سنة ١٩٣٣ ص : ١٣٣٥

ويقول دكتور أحمد محفوظ " لم أر رأسه عاريا قط ، فهو مغطى بطربوش طويل أسود ، وكان يلبس منظارا سميكا من الزجاج ، وحذاؤه ضخم من الصنف الإنجليزى من غير شك ، مشدود الجوارب بحمالة من الاستك فهو يخالف شوقى فى هذا ، لم يلبس فى حياته بيجامة قط ، انما هو جلباب من الكستور فى الشتاء أو البفته صيفا ، كان يحب الطعام الدسم حبا جما (١)

---

(١) ملخصا عن حياة حافظ ، أحمد محفوظ ص: ١٥٤ — ١٥٥

اخـــلاقـــــة

انتاب حافظا كثير من الشدائد منذ حداثته ، فقد مات والده صغيرا ولم يورث ثروة ، وكان بائسا فى بيت خاله ، ولم ينجح فى المحاماة وأصيب فى منصبه فأحيل إلى الاستيداع ثم إلى المعاش فى مقتبل عمره ، وكانت له إلى هذا نفس شاعرة وحس مرهف ، فأثر كل ذلك فى نفسه أثرا بليغا — كما قلنا آنفا — فهو ناقم على الدهر ناقم على قومه يكثر من شكوى الزمان وشكوى الناس ولكن أبت الطبيعة إلا أن تجد لثورات نفسه منفذا ولشقائه مصعدا ، فمنحته فلتة الفكاهة الحلوة والنادرة المستملحة ، فضحك من البؤس ، ومن الشقاء ومن كل شىء وكان له ذوق بارع فى اختراع النكت من كل ما يدور حوله ، فما يسمع حديثا ، أو يعرض أمامه شىء ، حتى يدرك موضع الفكاهة منه ، فيصوغ ذلك صياغة تستخرج ضحك السامعين من أعماق صدورهم وقرارات قلوبهم ، فكان فى مجالسه موضع إعجابهم ومنبع سرورهم (١)

وكان يأبى العمل ، ويأبى الاحتجاز ، ويأبى القيود ، فلذلك كان يخاف المجهول الخبىء فى صدور رسائله الجدد ، فهو جزع دائما ، خائف دائما ، لكنه سالم دائما أيضا . وكان من أعاجيبه : إذا حلت إجازته السنوية — وكان دائما فى إجازة — هرع إلى القلم ، فينشر فى اجازة أن شاعر النيل قام بإجازة شهرين للترويح من عناء العمل ، وهو لم يعمل قط ، ولم يتعنى قط ، ولم يكن موظفا له التزامات الموظف قط .

---

(١) مقدمة ديوان حافظ لأحمد أمين ص : ١٦

وكان رعيدًا يرجه الخوف من التوافه ، كأنه طفل صغير ملأت رأسه صور الغيلان والعفاريت من قصص الجائز في ليالي الشتاء المقرورة . (١)

ثم قد تعود في حياته ألا يقيم للمال وزنا فهو كريم واسع العطاء ، وكما كان كريما على نفسه ، يمتعها بما تشتهي — ما وجد إلى ذلك سبيلا — فيأكل خير ما يؤكل ، ويشرب الخمور الغالية النفيسة ، ويدخن خير سيجار وأغلاه ، فإذا فرغ جيبه عرف كيف يصير ، له يد صناع في الكسب ، خرقاء في الإنفاق .

ويقول أحمد محفوظ : وظل كريما مبذرا للمال طوال حياته ، لا يعرف للمال قيمة ، ولا للدنيا حسابا ، كان يعطي من يسأله الشيء الكثير ، ويعطي من لا يسأله أيضا . فأضاف قائلا : كنت أصعد معه يوما سلم دار الكتب ، فإذا برجل يصعد نساخا ، وكان يصعد قبلنا ولكنه صعود المتخازل المريض ، لأنه كان يتحامل على نفسه ويستند على الجدار ، فلما أدركناه ، نظر إليه حافظ ورأى سوء حاله ، فاستوضحه أمره ، فقال الرجل : (إني مريض ولكن لا بد من العمل لأطعم أولادي) فأخرج الرجل الأغرب الذي لا أولاد له جنيهين من محفظته وقدمها لهذا المريض المكدود الساعي على العيال . وقال : " خذ واذهب الى بيتك ولا تحضر حتى تبرأ . وإن احتجت إلى مقدار آخر فابعث إلي " .

ويسمع عرضا عن إمرأة فقيرة تجاور داره في الجيزة ، أنها المطلقة في الطلق وأنها معسرة ، فيبعث إليها بعشرة جنيهات ، وكان راتبه يومئذ لا يتجاوز الأربعين جنيها .

وحدثني يوما قال :

(كنت لا أملك إلا جنيه واحد في جيبي . فبينما كنت أركب عربة الخيل ، إذ بصوت ينادي ، فالتفت فكان جورج طانوس ، فوقفت السائق ، ودعوت جورج إلى

---

(١) حياة حافظ لأحمد محفوظ ص : ١٦٠ — ١٦١

الركوب معى فقال : " أنا فى حاجة إلى جنيه " فلم أتردد وأعطيته الجنيه الذى لا أملك غيره ، فما هو أن غاب حتى رجعت إلى نفسى ، وندمت وقلت : ومن يدفع لى أجر العربة أما كان يجب أن أقاسمه الجنية .

وظللت أتردد بالعربة فى الشوارع لعلنى ألمح صديقا أقترض منه هذا الأجر فلما طال ترددى إذا برجل لا أعرفه يصيح لى يا حافظ بك ... يا حافظ بك ... يا حافظ بك ... يا حافظ بك ... فنظرت ناحيته وطلبت من السائق الوقوف ، فلما تبينته لم أعرفه ، ثم قال تسمح ، وركب بجوارى وقال :

أنا وكيل البرنس كمال الدين حسين وأنا فى طلبك منذ أيام لأن سموه أنشأ قبرا له ويريد أن يكتب على رخامه المقام عليه ثلاثة أبيات من الشعر أو أربعة ، وقد دلنى عليك ، فمتى تستطيع أن تقدم إلىّ الأبيات ، فقلت : الآن ، وصحت بالسائق هيا إلى مقهى متاتيا .

فلما وقفت العربة أمام المقهى ، أخذت أتحسس جيوبى موهما الرجل إننى سأدفع أجر السائق ، فبادرنى قائلا : لا والله وأعطى السائق أجره ، وجلسنا فى المقهى ونظمت له الأبيات فأخرج لى عشرين جنيها ذهبيا وأعطانيها) (١)

وقد عرف أصدقاءه ومحبوه من الأثرياء إسرافه وكرمه ، فكانوا يمدونه ويعاونونه فى غير من ولا أذى ، كانوا يبذلون له مالهم ويبذل لهم ظرفه وطلاوة حديثه وخفة نسيمه ، وله قصص أخرى كثيرة فى هذا الباب يطول بنا الحديث عنها .

ومع هذا لم يكن سخيا بمنصبه سخاءه بماله ، فهو حريص على بقائه فى علمه بدار الكتب أشد الحرص ، فهو لا يقول شعرا يغضب به أحدا من ذوى السلطان خشية أن يزحزحوه عن منصبه ، وإن قال شعرا سياسيا أخفاه ، ولم ينسبه إلى نفسه ، ومن ثم

---

(١) حياة حافظ ابراهيم ، أحمد محفوظ ص : ١٦٣ ـ ١٦٤

كانت هذه الفترة في حياته فترة نضوب في شعره وجمود في قريحته إلا نادرا ، فكان منصبه نعمة عليه ، ونقمة على فنه ، ومنفعة له ، ومضرة على الناس ، ثم هو واسع الصدر في نقدك لشعره ، اذا كنت وهو على انفراد ، فاذا نشرت نقدك في صحيفة أو على جمع من الناس ، فهو غضوب أشد الغضب ، ناقم أشد النقمة ، حريص على منزلته في فنه أكثر من حرصه على شخصه ، حتى لأحب إليه أن تهجوه من أن تهجو شعره (١)

---

(١) مقدمة ديوان حافظ لاحمد أمين ص: ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ملخصا

ثقافته

=x=x=x=x=x=

لقد قلنا أنفا ان الثقافة التي تلقاها حافظ بالمدارس محدودة جدا ، قليلة الغناء . فهو ذا ثقافة محدودة جدا . فان حافظ كما مر بنا من حياته لم يحظ من التعليم الا بالقدر اليسير فثقافته ثقافة محدودة جدا متواضعة لا تعدو الدراسة في مكتب أو في مدرسة ابتدائية ، ثم أخذ طرفا من دراسة المدارس الثانوية والمسجد الأحمدي بطنطا .

ذلك الى المدرسة الحربية حيث تلقى بعض الدراسات الفنية . وليس في هذا الحصاد ما يصلح لأن يعتد به في موازين الثقافة ، بل ليس فيها ما يساعد الاستعداد الفطري للشاعرية (١)

ولكن ثقافته لم تنحصر فيما أفاده من هذه المدارس . فقد أخذ يحتطب بنفسه ثقافته الحرة فأكثر من قراءة الأدب وأطال النظر في دواوين الشعر ، فانه أكمل ثقافته ووسع معارفه من نواح متعددة ، وعكف على قراءة كتب الأدب العربي وأشبع رغبته منها . وبخاصة كتاب "الاغاني لأبي الفرج الاصفهاني" الذي قيل إنه قرآن نثر . ويحسن بنا أن نلقي ضوءا على مصادر ثقافته واحدا واحدا حيث وجدنا له مصادر ثقافية متنوعة منها القراءة ، المجالس ، والصحف ، والأساتذة .

---

(١) حافظ ماله وما عليه . د . كامل جمعة صـ ٨٠

الشعراء

فقد تحدث حافظ عن نفسه أنه كان يطيل النظر في دواوين الشعراء ، ويتخير من شعرهم ويحفظ ما يتخير من أمثال شعر بشار ابن برد ، ومسلم ابن الوليد ، وأبي نواس ، وأبي تمام ، والبحتري ، والشريف الرضي ، وابن هاني الاندلسي ، وابن المعتز ، والعباس ابن الأحنف ، وأبي العلاء المعري .

فاذا جلست إليه أخذ يسمعك من محفوظه ما يبهرك. (١)

وقد قرأ كتاب " الوسيلة الادبية " وكتاب " المكافأة " ، وكتب الجاحظ وغيرها من أمهات الكتب ، وكان قوى الحافظة ، ساعده على هذا ذاكرة واعية حافظة صارت مضرب الامثال بين أمثاله .

فيقول صديقه الشيخ البشري عنه :

---

(١) مقدمة ديوان ص ٢٠

"يتناول الصحيفة فيها القصيدة لشاعر كبير ، أو المقالة لكاتب مبرز ، فاذا عناه ، تجمزان فيها جمزا حتى يأتي على غايتها ، ثم يطرح الصحيفة حتى ما تثنك في أنه كان يطلب نموذجا من بعض أقطارها ليعجل عليها الحكم السريع النظر فما يروعك بعد أيام بل بعد شهور بل بعد سنين طوال الا أن تبعث المناسبات ذكر هذه القصيدة أو هذا المقال فاذا حافظ يروى بظهر الغيب أفخر ما فيه أو أحقه بالزراية لبلوغة الغاية من الفسولة والإسفاف (١)

هذا وقرأ حافظ إبراهيم "كليلة ودمنه" لابن المقفع مرات ومرات — وكما قلنا — أنه حفظ من الشعر العربي الجزل الفخم الكثير الجم فكان ذلك عدته في فنه ، وكانت له كتب أخرى حية ناطقة استفاد منها الكثير .

وأن نشأته وصحبته ساعدت على تفوقه في الآداب العربية ولا نريد بها إلا العشرة الصالحة التي وفق إليها حين اتصل برجال الأدب الممتازين الذين كانوا يؤمنون بأن اللغة العربية من أرقى اللغات ، وأدبها من أسمى الآداب .

---

(١) نقلا عن حافظ ما له وما عليه ص ٨١

وهذا حق لا شك فيه . فان اللغة العربية ظفرت بما لم تظفر به اللغات الحية الأخرى . فقد دخلت إليها العبقريات من كل جنس عن طريق الإسلام . فاكتسبت هذه اللغة الأمم المختلفة . وهذا الذى نقوله لا تحيزا فيه . وللقارئ أن يتأمل هذه الفكرة فسيراه من صميم الصواب .

هذا فأولئك الأصحاب والاصدقاء العارفون بقدر اللغة العربية وجهوا حافظا وجهة صالحة حين غرسوا فيه الميل الى التعمق فى الأدب القديم فكان له بعين من الرواية لا ينضب . وكذلك كان من أعرف الناس بما أبدع الأولون (١)

بيد أن حافظا لم يكن يعكف على قراءة منظمة ذات منهاج مرسوم — وهذا يناقض طبعه — . ولم يكن يتناول المسائل التى يقرأها تناول الدارس العميق بل كان كالنحلة التى تنتقل من زهرة إلى زهرة . وترتشف من هذه رشفة ومن تلك رشفة . فهو يرضى ذوقه فى أوقات فراغه بالمطالعة المتنقلة . فاذا عثر على أسلوب رشيق أو معنى دقيق اختزنه فى نفسه .

---

(١) مقال للدكتور زكى مبارك فى كتاب ذكرى الشاعرين لأحمد عبد ج ١ ص ٦٩ — ٧٠

ويجب أن نعرض مدى إلمام حافظ باللغة الفرنسية . والناس يقولون إنه كان ضليعا فيها . والأستاذ أحمد أمين يقول : إن حافظا لم يكن يلم الفرنسية ، فمكنته من الإطلاع على شيء من آدابها ، وقد ترجم (البؤساء) لفيكتور هوجو ، وترجم بعض قطع لجان جاك روسو ، واشتغل في ترجمة كتاب "موجز الاقتصاد" مع خليل مطران ، وكان يقرأ بعض ما يترجم من الأدب الانجليزي . ولكنه على كل حال لم ينل حظا وافرا في الأدب الفرنسي ، ولم يكن أثر ذلك كبيرا في شعره ، إنما شعره نتاج الأدب العربي والثقافة العربية والتجارب الشخصية (١)

---

(١) مقدمة ديوان حافظ للأستاذ أحمد أمين صفحة ٢٢

المجالس

ومن أهم مصادر ثقافته : هو مصدر دائم الاستمرار لا يغيض ماؤه ولا ينقطع ثمره وهو مدرسة الحياة التي تتلمذ فيها على الناس والحوادث ، فقد أتاحت طبيعته الشعبية التي فطر عليها أن يمتزج بغمار الناس وأن يجالسهم ويشركهم خيرهم وشرهم ويستظهر عواطفهم ومشاعرهم (١)

فهذه المجالس التي كان يرتادها حافظ أثرت في اتجاهاته الفنية ، فلقد عاشر حافظ من أول فتاء السن الى غايته العمر أعلام الادب ، واللغة ، والعلم ، والسياسة في عصره وداخلهم وجالسهم ونادرهم وأخذ عنهم . وكان له مجلس من الأدباء في المقاهي والمنتديات أمثال : خليل مطران والشيخ عبد العزيز البشري ، والإمام العبد ، وكانت المجالس تجتمع فيها الفكاهة الحلوة والنادرة الطريفة ، يستعرض فيها الأدب وطرائفه ، فكان كل منهم مفيدا ومستفيدا ، عارضا ومعارضا . (٢)

---

(١) حافظ ما له وما عليه ص : ٨٩

(٢) مقدمة الديوان لأحمد امين ص : ٢٢

كما نرى أن صاحب الامام محمد عبده ، وحمزه فتح الله ، وابراهيم اليازجي ، ومحمد المهدي ، وسامي البارودي ، ومصطفى كامل وسعد زغلول ، وأخيه فتحي ، وقاسم امين ، واسماعيل صبري ، وحفني ناصف واحمد حشمت ، وعلي يوسف ، وابراهيم المويلحي ، وابنه محمد .

فكانت هذه المجالس كما يقول الأستاذ أحمد امين : من أرقى المجالس تطرح فيها المسائل العلمية ، والمعضلات السياسية ، والمشكلات الاجتماعية ـــ و ... و ... و ... حسبك أنه كان فيها أمثال الشيخ محمد عبده وسعد زغلول ، ومصطفى كامل .

ولعل هذا كان أكبر منبع استقى منه حافظ أفكاره التي صاغها في قوالب شعره (٢) كما أنه كان يشترك في حلقات السمر التي فيها أحد هم طالب متأدب وآخر متشاعر وثالث متظرف ، يعرضون فيها محفوظهم من الشعر والأمثال والقصص وما إلى ذلك من صنوف الأدب ، ولا شك أن حافظا قد جنى من هذه المجالس كلها فوائد جمة زادت من ثقافته ونمت معارفه ، وكانت مادة دسمة صاغ منها كثيرا من أفكاره .

---

(١) نفس المرجع

الصحف

وإلى جانب هذه المجالس الادبية والفكرية ، كانت الصحف تصدر حافله بالموضوعات الأدبية والعلمية التي كان حافظ يجد فيها لذة ونشوته فهو اتصل بالصحف التي كانت توجد في زمنه ، وتوطدت أواصر الصداقة بينه وبين رجالها ، وكان يتردد على دورها ، ويقضي مع أصحابها ومحرريها الساعات الطوال ، فيتزود بمعارف مختلفة في السياسة والأدب والاجتماع وخاصة تلك المعارف الادبية التي كانت تدور بين صفوة المتأدبين والنقاد .

وهو كذلك كان له نصيب أوفر في التجاوب مع صحف عصره حين كان ينشر قصائده فيها تباعاً . وفي المناسبات ، إذ كان صديقه الصحفي سليم سركيس كثيراً يقترح عليه الكتابة في بعض المناسبات ، وكذلك جريدة "المؤيد" تقترح على الشعراء النظم في المناسبات كما كان حافظ على صلة وثيقة بمجلة "المنار" وصاحبها الشيخ محمد رشيد رضا الذي كان أخلص تلاميذ الإمام محمد عبده ، كما كان المرحوم جرجي زيدان صاحب الهلال صديقاً مخلصاً لحافظ فكان يشجعه ويقدمه ويسر له ارتياد مجالس العلم والأدب . وقد رثاه حافظ رثاء وعرفانا بالجميل (١)

ومما لا شك فيه أن الصحافة كانت منبعاً فياضاً استقى منه حافظ ألواناً مختلفة من الثقافات كانت تمده بكثير من الأفكار التي صاغها في شعره .

---

(١) راجع الديوان جـ٢ ص: ١٨٣

الأساتذة

نحن قلنا بأنه اتصل بأعلام الأدب والعلم والسياسة الذين اشتهروا في عصره ونهل من بحار علمهم ، يأخذ عنهم ضروبا من العلم والمعرفة ، ولعل من أشهرهم السيد توفيق البكري وكان حافظ يتردد على داره بحي الخرنفش ويقابل هناك نفرا من أفاضل العلماء ، أمثال الشيخ الشنقيطي ، والشيخ محمد الخضري ، والشاعر اللغوي حفني ناصف . وليس من شك في أن حافظا قد تزود من هؤلاء المشيخة بقدر كبير من ألفاظ اللغة وتراكيبها ، وساعده على ذلك حافظة لا قطة وذاكرة واعية . (١)

كما كان يتردد على منزل الشاعر إسماعيل صبري ويلتقي هناك بكثير من الشعراء أمثال شوقي ، ومطران وأحمد نسيم ، ومحمد عبد المطلب ، وعبد الحليم المصري وغيرهم من شباب الشعراء ، وكانوا جميعهم يعتبرون إسماعيل صبري أستاذهم يلقبونه بشيخ الشعراء (٢) فيعرضون عليه أشعارهم ويستهدون بآرائه القيمة فيها وإلى ذلك يشير حافظ في رثائه له (٣)

---

(١) حافظ ابراهيم شاعر النيل د . عبد الحميد سند الجندي ص ٨٢

(٢) شعراء الوطنية للأستاذ عبد الرحمان الرافعي ص ٣٠

(٣) راجع الديوان ج ٢ ص ٢١١

فنحن نرى حافظا يعترف بما كان لإسماعيل صبري من فضل في تهذيب شعره وصقله ، والحق أن إسماعيل صبري كان شاعرا رقيقا عميق الوجدان ، يجيد نظم المقطوعات يعبر بها عن معان دقيقة عاطفية .

وكان هناك أستاذان عظيمان لهما أثر بليغ في فن حافظ وثقافته ، وهما محمود سامي البارودي ، والإمام محمد عبده ، والبارودي هو رب السيف والقلم كما يلقبونه ، وهو باعث النهضة الشعرية الأولى في العصر الحديث لأنه ارتفع الشعر إلى منزلة الفحول من شعراء العصر العباسي وأعاد له ديباجته القوية وفحولة عبارته ومتانة قوافيه ، والبارودي كان كطان مثله الأعلى ، كما يقول د . شوقي ضيف (١)

أخذ يطابقة مطابقة تامة بين هذا المثل وشعره واستطاع أن يظفر في ذلك بما كان يطمع عليه ، فقد حول إلى شعره صيغة الجزلة الرصينة وإن كان قد حاول تبسيطها إلا أن قوالبه تمتاز دائما بما تمتاز به قوالب البارودي من الرصانة والجزالة والبعث للأساليب العربية الأصيلة ، فكان حافظ شديد الإعجاب بأستاذه ، فقد وقف عند منهج أستاذه ، ولم يحاول التجديد إلا في حدود ضيقة ،

---

(١) الأدب العربي المعاصر في مصر ، د . شوقي ضيف ص ١٠٤

ولا ريب فى أنــــه اتجــه إلى الجندية إلا رغبـــة فـــى أن يســــــلك مســــلك أســــتاذه فأراد أن يكــون لـــه من السيف والقلم ما كــان لأســــتاذه منهمـــا ٠ ولكنه لم يظفـــر بما كـــان يحلم به فى ميدان الفروسيه والحرب ٠

أما صــــلة حافظ بالإمــام محمــد عبــده صـــلة قويـــــة فكان حـــافظ يلم بحلقة الإمام عصــر كل يوم فى الأزهـــر ٠ فتمتلئ نفسه إعجـــابا ٠ لأنـــه يـــرى منه منطقا فى التفكــــير لا عهــد لـــه به من قبـــل فيلزم الحلقة ٠ وعندمـــا ســـافر حافظ إلى الســــودان لم تنقطع رســـائله عن أســـتاذه ٠ حتى كان ألصق الناس به ٠

وقد أفاد حافظ من خـــلال مجالس الشيخ محمـــــــد عبـــده ثقافة مختلفة الطعوم ٠ شهية المذاق ٠ كما عرف عن أســــتاذه مناهـــج التفكير الســــليم ومســــالك الجدل القويم ٠ وإلى ذلك يشـــــير حافظ بقولـــه : (١)

يا أمينا على الحقيقة والافتـــــاء والشـــرع والهدى والكتـــاب

وكانت صحبة حافظ للأســــتاذ الإمام خيرا وبركة ٠ وقد جنى منهـــــا حافظ أكرم ما جناه فى حياته من علم ونور وثقافة ٠

---

(١) راجع ديوان حافظ صـــ ٢٤ ـــ ٢٥

هذا وقد أفاد حافظ افادة طيبة من أسفاره إلى الخارج ، فقد عاد بآراء جديدة من رحلته إلى أوربا . وقد ينعى على المصريين تواكلهم وخمولهم ، ويطلب منهم التشبه بالأجانب في أخلاقهم الطيبة وكانت رحلته إلى الشام ذات أثر طيب في امتداد معارفه .

ولم يفد حافظ كثيرا من دار الكتب والتي كانت خزانة الادب والثقافة والمعارف في مصر ، فقد تركت صحبة الكتب بعد أن التحق بها .

وفي المدة بين سنة ١٩١١ وسنة ١٩٣٢ لم يقرأ كتابا ذا قيمة إلا قصصا تافهة المعنى والأسلوب (١)

وانه قبض إلى رحمه ربه وليس في داره من الكتب إلا ثلاثة أجزاء أو أربعة من الأغاني وكتاب أو اثنان في الفرنسية وبعض كتب الأقاصيص والروايات المترجمة إلى العربية (٢)

---

(١) حياة حافظ ابراهيم ـ أحمد محفوظ ص ٢٢٩

(٢) عبد العزيز البشري ـ السياسة الأسبوعية ٢ سبتمبر ١٩٣٢م

بيئتـــه الفكـريـــة

لا بد لنا أن نعرض لبيئته الفكرية والاجتماعية قبل الخوض في صلب الموضوع وهـو اجتماعيات الشـاعر .

فإن البيئة هي التي تمهد نفسية الشاعر وتكونه تكوينا منفردا ..

فهي مرت بالشرق العربي والعالم الإسلامي عامة ومصر خاصة خلال الحقبة التي عاشها الشعب والشاعر أحداث وحوادث كان لها أثر كبير قوي في قريحة الشاعر فانطلـــق يسجلها على قدر طاقته ومواهبه . فكانت قصائده صدى هذه الأحداث وعرض هذه الحـــوادث .

فكـــان لاتصال حلقات الكفاح من أجل الحرية والاستقلال أثر فعال في خـلق الكفاح من أجل الإصلاح في مختلف نواحيه . وكان أساس هذه الدعوة الإصلاحيـــة ما دعا إليه في مصر فيلسوف الشرق السيد جمال الدين الأفغاني . فقد دعا إلـــى النهضة والتحـرر ، والأخذ بأسباب المدنية ومقاومة الاستبداد والطغيان .

ولم تعدم هذه الدعوة الإصلاحية آذانا واعية ، وأذهانا ناضجة ، وقلوبا متفتحة فكان من أبرز من تأثر بها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده . و... و... حتى كانت بدايـــة الامتزاج في مجال السياسة والتشريع .

وأخذت النهضة التعليمية تتسع ، فأنشئت المدارس العالية ، وازداد عدد المدارس الابتدائية والثانوية . وفي الجملة تغيرت وجهة التعليم بتغير غايته ، إذ أصبـــح هدفا في حد ذاته ، وكان غرضه من قبل خدمة الجيش وإعداد موظفي الحكومة .

واتخذ التيار الحضارى فى مصر طريقا آخر هو الفن • فأنشئت فى عهد إسماعيل دار الاوبرا • واشتد الاتصال الحضارى بين مصر والغرب بعد فتح قناة السويس وكثر عدد البعثات العلمية • وبعد عودة أعضاء البعثات ظهرت آثار مافقهوا فى الخارج • وترجمت العلوم الحديثة إلى العربية • كما ترجمت روائع الأدب الغربى • وكان من نتيجة نقل الآداب الأوربية إلى اللغة العربية أن أخذ الذوق الأدبى للشعب يتغير • واتصلت أفكاره بالأفكار الغربية • وكذلك أخذ العلماء والأدباء يتخذون الكتب المترجمة • فوضع جورجى زيدان رواياته التى استمدها من التاريخ الإسلامى • وبدأ المسرح العربى يعرض مسرحيات مؤلفة مستمدة من تاريخ تاريخنا •

وقد تيسرت الوسائل لنشر الآداب • فتوفرت المطابع وتحسنت أدواتها • فبدأت الكتب الأجنبية تترجم • وكذلك أخذت الكتب العربية القديمة تنشر • كما كان يرد إلى مصر من مطبوعات أجنبية •

وتُوِّجت الحركة الفكرية فى مستهل القرن العشرين بانشاء الجامعة المصرية فى عام ١٩٠٨م وألقى فيها دروس الأدب بانتظام أساتذة أجلاء من مصريين وأجانب منهم جويدى ونالينو • فأحدثت الجامعة نقلة عقلية كبيرة •••••و•••••و•••• فنتج عن هذه الجهود أن أخذ الرأى العام يتكون ليشارك فى الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية •

وكان ميدانه الصحف والمجلات والمجتمعات والندوات • وتطور الرأى العام بتطور الحياة الفكرية من رأى عام منقاد إلى رأى عام مستنير يؤثر فى الأحداث كما يتأثر بها • فكان للحياة الفكرية وبيئتها وعواملها أثر كبير فعال فى أدبنا الحديث • (١)

---

(١) حافظ ماله وماعليه ص: ١٤ ــ ٢٥ ملخصا •

فنزل حافظ القاهرة مطرودا من السودان خاوى اليدين فتصفح الصحف والمجلات الحافلة بالأفكار الجديدة متعددة الأنواع مختلفة الأهداف مقسمة إلى أحزاب .

فكانت هناك أشهر الصحف العربية وأقدمها صحيفة (الاهرام) التى لا تزال خبرا للفنون والعلوم والأدب ، كما كانت هناك جريدة (المقطم) وكان هناك (المؤيد) والهلال .. فاستفاد بها حافظ إفادة كاملة . واكتسب منها أفكاره ونزعاته وشاعريته

وهناك مجلة «المنار» كما انه هناك مجلة «ثمرات الفنون» وأخيرا «اللواء» ٣

فقد كثر فى أول هذا القرن المتعلمون وأخذت الصحف تظهر بانتظام تنشر الشعر والمقالات الأدبية ، وأخذ الشعراء يتنافسون فى نشر انتاجهم بالصحف ، ودعاهم ذلك إلى أن يفكروا فى الجمهور ، وأن يخاطبوا طبقته الوسطى ، ويمسوا عواطفها السياسية والوطنية والاجتماعية وكان الإسلام هو الصوت الأول الذى لبى حاجة الجماعة المصرية . وانقسم المصريون حزبين : حزب الوطنى وحزب الأمة ، وكثر الحوار فى الآراء السياسية ، وكثرت المقالات ، وأخذ الكتاب يكثرون فى عيوب المجتمع ، وتهمهم الشعراء ينظمون شعرا سياسيا واجتماعيا ، ويقدمهم حافظ وينشىء هذا الشعر ويذيعه فى صورة قوية فكان وافر الحظ موفقا للغاية . (١)

وحافظ كان بذلك صورة حيه لعصره فهو ينقله إلينا فى شعره بأفكاره وآراء كتابه وخطبائه ـ وأساليبهم احيانا ـ فكل ما يضطرب فى نفوس معاصريه يستوعبه استيعابا رائعا ويحوله شعرا فإذا وجدته يقول :

وما أنت يا مصر دار الأديب	ولا أنت بالبلد الطيب
أيعجبنى منك يوم الوفاق	سكوت الجماد ولعب الصبى
يقولون فى النشء خير لنا	وللنشء شيء من الأجنبى

---

(١) شعراء العصر ، محمد صبرى ، ص : ١٠٦

بيئته الاجتمـــاعية

****

أذن نعرض لبيئته الاجتماعية التى هيأت ذوقه الفنى وخواطره الاجتماعية . وإحساسه بما حوله . وكانت مدرسة درس فيها حافظ الظرف والأخلاق وفن الحديث وميوله الشهوية وهى أيضا التى اتخذت له أصدقاء أنسوا اليه وأنس اليهم بل هى التى جعلته شـــاعرا اجتماعيـــا .

فى الثلث الاخير من القرن التاسع عشر كانت مصر مسرحا لحوادث خطيرة . لو وقعـــت فى أية مملكة من ممالك الأرض لأقعدتها عن السعى . وردتها عن المجد . وأوردتهـــا موارد البؤس . فقد كانت الدولة العثمانية تحتفظ بالسيادة الإسمية على مصـــر . وكـــانت إنجلترا وفرنسا تعملان على محو الاستقلال . وتتنافسان فى التدخل بشئونها . وكـــان الخديو يريدها للسلالة العلوية موطن الملك وربـــع الحكم لا ينازعه فى ذلك منازع. (١)

هذا وانه لم تستطع النهضة التى شملت مصر فى أوائل القرن التاسع عشر أن تُظهـــر المجتمع المصرى فى صورة متماسكة واضحة إذ أن هذا المجتمع الزراعى الفقير ما كاد يشعـــر بوجوده شعورا ما بعد استيلاء مصر على الشام وبلاد العرب وبعد حصوله على قبس مـــن الحضارة الأوربية حتى وجد نفسه شعبا لا يملك حتى أرضه التى يعيش عليها . فقـــد استولى عليها الحكام وصارت ملكا لهم . وأصبح الفلاح المصرى فيها أجيرا مهضوم الحق . وظل الشعب طوال عهود إبراهيم وعباس وسعيد يجاهد بؤسه وفقره . وقد تزايد فى عهـــد الخديوى الإحساس بالظلم . تضخمت الديون وساءت مالية الدولة . وسخر الشعب لحفر القنـــاة .

---

(١) شاعر الشعب . د . سامى الدهان ص: ٧

ثم بدأت الحركة الوطنية التى آزرتها الأصوات الحرة فى مجلس شورى النواب وفى الصحف تجاهد من أجل ابعاد خطر التدخل الاجنبى . وهنا كان الكفاح الشعبى قد نضج فى ثورة عرابى التى حاول توفيق اخمادها مستعينا بالانجليز فاحتلوا مصر احتلالهم البغيض المعروف. (١)

وفى ذلك الحين نجد أن بوادر التفرقة أخذت فى الظهور بين بعض طبقاته هذا إلى شعور بخيبة مريرة بضياع الاستقلال . فأصبح الشعب المصرى موزعة الأهواء مقسمة العواطف . ففريق منهم يسير تحت علم الهلال يرفرف فى حماية الإسلام والجامعة المحمدية ، ويرى فيه رمز الخلافه واتحاد المسلمين . وفريق يتمسك بالبيت العلوى يرى فيه قوة للسلطان ، واستقلالا لمصر ، وبعدا عن سيطرة الغرب . وفريق ثالث يئس من الأستانة لضعف المالكين فيها وملّ وجود المستعمر المستبد لظلمه وجرائمه وكفر بسلطان لتذبذبه بين العثمانيين والانجليز، فأمن بمصريته ، وتعلقت آماله بالاستقلال ووحدة النيل فهو لا يرى النور الا بهما ولا يجد عضد الا بقوتهما .

وأصاب هولاء الأفرقاء جميعا هزات عنيفة بعثت روح اليأس ، فجنح كثير منهم إلى السكوت وفريق منهم إلى موالاة الاحتلال ، وظلت مصر تتخبط فى أمواج السياسة دون أن تبلغ إلى شاطئ الأمانى . (٢)

أما بقية الشعب المصرى الخالص فى عواطفه ووطنيته فهو الطبقة الكادحة الفقيرة تتجاوب معها طائفة من أحرار الطبقة الممتازة ، وهولاء كفروا بالاحتلال وبالقصر ، وآمنوا بمصريتهم ، وتعلقت آمالهم بالاستقلال ووحدة وادى النيل . وقد حملت هذه

---

(١) حافظ ماله وما عليه . د . كامل جمعة ص: ٨

(٢) شاعر الشعب . د . سامى الدهان ص: ٨

الطائفة مشعل الرقى السياسى والاجتماعى وتجسمت المعانى الوطنية فى أحد أفرادها الزعيم مصطفى كامل ، وقد اتجهت جهود قادتها إلى الإصلاح الدينى والاجتماعى كما فعل الإمام محمد عبده فى إصلاح الأزهر وحل مشكلات المجتمع عن طريق الدين وتبصير المجتمع بحقوقه .

واتجه نحو الاصلاح الاجتماعى الخالص قاسم أمين فى دفاعه عن المرأة وحقوقها ودعوته إلى السفور ، كما قام البعض لنشر التعليم فى شتى مراحله على أسس قومية خالصة ، وبفضل هذه الطبقة الممتازة أنشئت الجامعة المصرية القديمة .

فقد مضت هذه الصفوة الممتازة تقود عامة الشعب الكادح المنطوى على بؤسه فانقاد الشعب لزعماء الإصلاح ونهض يقاوم المحتلين الغاصبين بشتى وسائله وكانت وسائل الكفاح أقلام الأحرار على صفحات الجرائد وخطابتهم فى المحافل والمجتمعات والندوات والمقاهى .

وكان هناك رجعيون يقاومون هذا الكفاح الشعبى . وكان ميدان هذه المقاومة الصحف الصفراء التى كان يحررها قوم مأجورون باعوا أنفسهم وأوطانهم وابتغوا عرضا زائلا ذليلا كان يدره عليهم المحتل وأعوانه .

غير أن هذا لم يضعف من قوة النهضة الإجتماعية فسارت فى طريقها مع فجائع وأحداث يوفاة قائديها . كما راح المحتلون يضيقون على الشعب فى حرياته ويصدرون قانون المطبوعات وعطلوا كثيرا من الصحف . و ..... و ..... و ..... و ..... و ...

وأخذ الإنجليز يعملون على الدس والوقيعة بين عنصرى الأمة المصرية مما جرّ على البلاد ويلات من الفوضى قتل فى أثنائها بطرس غالى ، وتعاقب على مصر من رجال الاحتلال دهاة ماكرون ، ولكن الزعماء المجاهدين علوا من جانبهم على رد كيدهم .

وفى هذا الوقت قامت الحرب العالمية الأولى ، وأعلنت الأحكام العرفية . وخشيت السلطات الانجليزية من تمرد المصريين ، فقبضت على كثير من الأحرار ونفتهم الى إلى مالطه وغيرها .

وكان من أثر الحرب أن تحمل المصريون كثيرا من الويلات والمتاعب . كما كان من جزاء اختلاط المصريين بأقوام مختلفة من جيوش الحلفاء أن تسللت إلى الى المجتمع المصرى أمراض اجتماعية وسوءات . ومن المعروف أن الحرب تخلف وراءها الدمار والفقر وتهما لذلك الانحطاط الخلقى والعادات السيئة والنقائص الاجتماعية ، ومع ذلك فان المصريين هبوا فى أعقاب الحرب يطالبون المحتلين بتحقيق الوعود المتكررة التى بذلوها ، ولكن الانجليز كعادتهم حاولوا التخلص من وعودهم السابقة .

وكرد للفعل قامت الحركة الوطنية بزعامة سعد زغلول وزملائه ، وجر نفيهم الى قيام ثورة سنة ١٩١٩ التى انتجت نتائج طيبة كان من أهمها تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وبعده استكان التيار الوطنى إلى الإصلاح الاجتماعى ، وكان إعلان استقلال البلاد بما صحبه من إصدار قانون التعويضات والاستغناء عن خدمات معظم الاجانب . وأخذت الصالح ترسم لنفسها خطة إصلاحات وطيدة . وخطت البلاد خطوات واسعة موفقة نحو الرقى فى مختلف النواحى ، فازداد عدد المدارس وأشرفت الحكومة على الجامعة المصرية ، وتأسست طائفة من الجمعيات العلمية وكشف كثير من الآثار الجغرافية والتاريخية ، وأنشئت المعاهد الدينية ، وجعلت مدينة القاهرة والاسكندرية والاقاليم ، كما على خزان أسوان وأقيم خزان جبل الأولياء .

ولا شك فى أن هذه الاصلاحات التى تحققت بعد ثورة ١٩١٩ كان لها صداها فى الحياة الاجتماعية المصرية ، وفى إحساس المصريين بكيانهم الجديد ، وهذا جعل المصريين يتطلعون إلى استكمال مقومات المجتمع الأمثل .

وكان لهزات دستورية فى مصر أثر كبير فى نضج الوعى الاجتماعى . (١)

هذا وقبل الثورة كانت الحياة فى القاهرة حياة هادئة هينة كحياة الجداول المنسابة فى رفق ، فإن عصر عباس الثانى امتاز بالسكون والبدعة السياسية ، فلا ثورات ولا حروب تمس مصر من قريب أو من بعيد .

وكان الناس يتنفسحون فى النوادى والبيوت والطرقات ودور اللهو . وكانت المواصلات فى المدينة القديمة بدائية ، فلم تعرف القاهرة بعد الأتوموبيل ولا الأتوبيس ولا الزحام الخانق الذى تعانيه اليوم فى ركائبها ومقاهيها وشوارعها ، كانت المواصلات الأولى فى القاهرة للشعب : الترام وكان يزحف فى مشيه ، كانت تعد فى ذلك العصر مثالية فى السرعة .

وكان يساعده فى حمل الجمهور عربات سوارس ، وهى ضرب من العربات شبيه الحال . تصحبه بغال ضافره عجفاء لا تكاد تخطو الا بالسوط والقلرع الشديد .

وكان هناك أيضا الحمير يتبعها المكارون بعصيهم يلهبون بها أعجازها . وهم فى خدمة الركاب .

وتأتى بعد ذلك عربات الكارو تحمل النسوة الى حيث مشاهد الصالحين ، أو الى المتاجر المتواضعة فى الموسكى أو الحكاوى أو الى المقابر .

وفوق هذا وقبل هذا كان عربات السادة والسيدات من البيئة الأرستوقراطية كانت تلك العربات اللامعة تجرها خيول فارهة مجلوبة من الجر أو من بلاد الروس هذا . و فى ذلك العصر كانت المقاهى نظيفة بموائدها الرخامية وخدمها اليونانيين المرتدين الأبيض والأسود وكانت من أشهرها مقهى نيوبار .

---

(١) حافظ ما له وما عليه ص : ٩ ــ ١٣ ملخصا .

وكانت هناك مقهى هو قهوة مشيدة قبالة وزارة المالية ، كان مقهى من الدرجة الثالثة ، يجلس فيه حافظ دائما مع المرحوم إمام العبد وغيره من ظرفاء شارع خيرت .

ومقهى ثانيا . يؤمه أدباء أوائل القرن العشرين منهم خليل مطران ، ولى الدين وإبراهيم الدباغ وغيرهم ، وفى هذا المقهى كان حافظ يتلو شعره ويعرض كل بيت قاله .

ومقهى اسلندباد : ورواده من الأدباء السوريين ، وكان حافظ يطرقه لحاجته إلى هؤلاء السادة فى الدعاية له والتعصب لشعره .

ثم مارا أمام الكونتيننتال مخترقا شارع كامل (شارع الجمهورية حاليا) ، متخذا شارع الساحه (شارع رشدى باشا) سبيلا حتى مقهى بار اللواء حيث داود بركات وتوفيق وفرغلى وغيره .

ويجب حافظ أن ينفرد لينظم قصيدة فيتجه نحو حديقة الأزبكية ليجلس تحت مسرحه عاتيه مظلة متهدلة الأغصان تسميها العامه (أم الشعور) ويسميها حافظ (شجرة البؤساء) ويأخذ فى النظم أو فى النثر .

ولا بد للشاعر من حياة الليالى ومن لهو الليل ، ولا بد لنفسه الشاعره ان تمرح ولجسمه أن يتنفس فى تلك البؤر التى كان يؤمها كل الناس غنيهم وفقيرهم تلك التى كانت تشع بالأنوار القوية وبالصخب الذى لا يهدأ إلا بعد الفجر وعند طلوع النهار ، والتى تزخر بأجسام النصف عارية والوجوه الحائله الألوان من طول السهر ومعاقرة الخمر ، وقبل أن يرد حافظ هذا المورد الكدر يعرج على الشاطئ المناوح لحى الازبكية فى شارع كامل ، حيث صفت الموائد على افريز النافورة المهدارة بالخرير حيث يجلس البرنس أحمد بطربوشه ، وحوله المتلوتن والحاشية .

يجلس حافظ فى بار دركاتوس ، فيصب لنفسه كأسا أو اثنين (كاسين) ويمزجهما بسكر الوطء الناعم .

و ..... و ..... هكـــذا .

وقد يذهب لشاهدة المسرح ، فيرى سليمان القرداحى يعرض مسرحيات شكسبير وفيكتور هوجو . وقد يحب سماع الشيخ سلامة حجازى فى مسرحية روميو وجوليت

وقد يضيق حافظ بكل هذا اللهو فيخوض أحشاء شارع محمد على حتى يصل إلى حى السيدة عائشة قريبا من القلعة .

أو يروح لزيارة السيد توفيق البكرى وأصحابه . أو يشترك فى حلقة السيد الامام محمد عبده .

وبعد ما استكمل حاجته من لهو وطعام وشراب ومعرفة انتقل عن هـــذا المجلس الى آخر ، واخترق شارع خليج أمير المؤمنين . حتى اذا أطل على ميدان باب الخلق حيث قدر له بعد بضع سنين أن يكون مسرح رزقه فى ذلـــك المبنى الضخم الواسع المكتظ بالكتب النادرة والتافهة القائم سنة ١٩٠٤ فيتامن ويدخل دار واسعة الابهاء يجمع أثاثها بين الذوقين العربى والتركى ، ويجد فى صدر إحدى الغرف الفسيحة رجلا كفيفا أبيض مهيبا أضناه الأسر حتى ذهب بنور عينيه ، وهو يتلو على الجلاس ـ وفيهم مطران وصبرى ـ شعرا فخما رصينا جزلا .. و ... و .... (١)

هكذا كان قد تعود أن يقرع كل باب المجتمع ويدخل جميع دور الاجتماع فيخرج منها شاعرا اجتماعيا .

---

(١) حياة حافظ . أحمد محفوظ . ص: ٧٧ ـ ٩٠ ملخصا .

اجـــــتماعياته

****

xxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxxx

إن شعر حافظ الاجتماعى صورة من نفسه وإحساسه ، فهو رجل اجتماعى بطبعه لا يعرف الحياة الا مع الناس ، يشاركهم أفراحهم وأحزانهم ، وآمالهم وآلامهم ، وجميع مشاكلهم الاجتماعية .

وإن حافظا لا يندمج فى نفسه أبدا بل هو مع الناس لا يعرفهم غيرهم ولا يطيق سواهم ، فاستفاد خياله من هذه المعاشرة ، ووقف به على حاجات الناس وأفراحهم وأحزانهم وكل ما يتصل بمنازعهم البشرية . فلو رزق هذا الشاعر خيال شوقى والتفاتاته لجاء عجبا فى الشعراء . (١)

فقد كان الناس مدرسته . فقرأ فى مدرسة الحياة ، وتعلم فى كتاب الشعب وثقف على معلميه من الجماهير أخلاقهم وعاداتهم ونوازعهم .

وقد رفعه فقره البشع وديمقراطيته المتواضعة والحاجة الى الجماهير للشهرة والتكسب ، إلى تفهم الأخلاق والعادات والنوازع .

وتسنى له بما كان فيه من ديمقراطية متواضعة أن يندمج فى الطبقة الوسطى والدنيا . وأتيح له بما ركب فى طبعه من شموس وامتياز أن يندمج فى الطبقة الممتازة . (٢)

---

(١) حياة حافظ . أحمد محفوظ ص ١٩٧ ــ ١٩٨

(٢) حافظ ما له وما عليه . دكتور كامل جمعه ص ١٧٢ .

فقد عاشر الصعاليك والشعراء والكتاب والساسة ، والأغنياء والفقـــراء والوزراء والاقطاعيين ، وكل الطبقات التي ينتظمها المجتمع ، فكان لابد له بعـد ذلك أن يجيد في وصف هذه الاشياء إجادة بعيدة وبحسن التعبير عنها . (١)

فأتى تصويره لحياة المجتمع المصري تصويرا صادقا معبرا صميما . لأنـــه يعبر عنها بلسانه المصري دون أن يجد في ذلك عناء ولا عسرا ، لأنـه لايتناول الصورة من بعيد ، بل يتناولها من قلبه وإحساسه ، فهو في شعره هذا جزل اللفظ رصين الأسلوب يتخير الألفاظ ويصطنع التعبير الذي يملأ النفس حماسا ويثـــير الخواطر ويلهب الشعور .

ما كان حدث من الأحداث يقع في مصر أو في الشرق ، ويتردد صداه في المجالس والمحافل حتى يتناوله حافظ ويطلعه على الناس في شعر لم يبلغ مـــن عمق التفكير ودقة التحليل ماينبغي أن يبلغه رجل اجتماعي أو مفكر متعمق أو دارس حصيف . فإنك لاتجد هذا العمق في شعر حافظه وما كان لنا أن نطالب الشاعـــر الاجتماعي بهذا العمق والتدقيق والتحليل . والشاعر إصالة معبر عن العاطفـــة والعاطفة لاتحتمل هذا العلم ودقة التحليل . (٢)

فحافظ الشاعر كان لسان الأمة ، الهاتف بنجوى ضميرها ، فهو يصور روح الشعب الموجع الحزين ومشاكله الاجتماعية الضخمة في اسى ووجوم ودهشة . واستغرق شعره الاجتماعي معظم شعره ، فقد امضى حياته ينظم فيه ، فجعـــل شعره سجلا للحوادث التي مرت بضفاف النيل ، وأحس بشعور الشعب فارتبـــط شعره بأفراحه وأتراحه ، وديوانه يصلح أبدا أن يكون من الوثائق الاجتماعية القومية بوادي النيـــل .

---

(١) حياة حافظ ، ص ١٩٨

(٢) محاضرات عن حافظ ابراهيم ، احمد الطاهر ، ص ٣٤

وهو لشعبيته كان ألصق بروح الأمة من " شوقي " وأعرق ، لأنه خرج من صفوفها ولم يدخل غمارها من خارجها ، وساعده هذا على أن يرى بعين مجردة آلام الناس ، وأن يشهد مواقف بؤسهم ، فانه كان من المتألمين والبائسين . وشعره في هذه الفترة من عمره الذي اعتصرته الآلام هو خير ما جاء به مما يصور نفسه ويظهر طابعه النفسي على حقيقته ، ثم استغنى بعد حين وظل يقول الشعر في قضايا الامة ، وكان شعره من أسباب التمهيد للوحدة بين الشعوب العربية اذ كان يبشر بهذه الوحدة في كثير من قصائده وقد امتاز شعره بالرصانة وحسن السبك . (١)

هذا فهو كان في شعره يحارب الفقر والجهل والعلل الاجتماعية والاخلاقية المختلفة . وله في هذا اللون شعر كثير يدعو فيه إلى البر بالفقراء وإنشاء الملاجئ والجمعيات لهم . ودعوته تجري ينابيع الرحمة والاحسان من أشد القلوب قسوة ، كما يدعو الى النهوض بالتعليم وانشاء المعاهد ودور العلم ، وقد دعا دعوة حارة إلى انشاء الجامعة القديمة ولما فتحت أبوابها للطلاب هلل لها طويلا . كما هلل لمدرسة البنات التي انشئت ببور سعيد ، فنظم في طلب العون لها قصيدة رائعة وهي التي يقول فيها .

الأم مدرسة إذا اعددتها

اعددت شعبا طيب الاعراق .

فقد تحول هذا الشاعر الى ما يشبه مصلحا اجتماعيا ويريد أن يصلح النفوس المريضة من حوله ، وكان أكبر من آذاه من أصحاب هذه النفوس المريضة — كما صور ذلك في قصيدة — الفقيه الذي يحلل ما حرم الله ابتغاء منفعة عاجلة والطبيب الذي يأكل أموال المرضى بالباطل ، ومهندس الري الذي يرتشي

---

(١) نظرات في أدبنا المعاصر . د زكي المحاسني ص ٥١ — ٥٢

فى عمله ، والاديب المنافق الذى يقلب الباطل حقا . وكان لايزال يصف هـذه العلل وامثالها ، ويرشد الى علاجها والتخلص منها ومن آفاتها بروح الصادق المخلص الامين . (١)

هكذا وقد تحراه طريقا له بعد اتصاله بقادة الاصلاح الدينى والاجتماعى كالاستاذ الامام ومصطفى كامل وسعد زغلول وقاسم امين ، وكان يحافظ يردد دائما ان هؤلاء المصلحين قالوا له اذا نظمت فانظم مثل هذا الشعر الاجتماعى . (٢)

" وكانه تنبه الى انها طريقة يستطيع ان ينفرد بها فقال : " ان كل قصائد شوقى الا ن غزل ومدح ، ولا اثر فيها لهذا الشعر . على انه هو الشعر " (٣)

فقد كتب عنه مصطفى صادق الرافعى فى مقاله :

" ولقد كان يفخر بانه "الشاعر الاجتماعى " وهذا لقب ميزه به صديقنا الاستاذ محمد كرد على . فراه حافظ تعبيرا صحيحا لما فى نفسه وللملكة التى اختص بها فقال لى يوما فى سنة ١٩٠٣ م : " انا لاأعد شاعرا الا من كان ينظم فى الاجتماعيات " (٤)

وكتب الاستاذ عبد العزيز الدسوقى عن مدى تاثر حافظ بمنهج الامام .

فقال : ولقد تاثر حافظ بمنهج الاستاذ الامام منذ أن اتصل به فى السياسة والاصلاح فكتابه " ليالى سطح " ليس الا من وحى تعليم الامام ، وقصائده الاجتماعية ونقده للمجتمع المصرى فى شتى أحواله ومختلف رجاله ليس الا تاثرا بمنهج الامام . (٥)

ونستطيع ان نرجع أصل هذا الضرب من الشعر الى الاستاذ الامام وزملائه

---

(١) د . شوقى ضيف . دراسة تاريخية لشعر حافظ (مهرجان حافظ) ص ١٨٦
(٢) د . كامل جمعة . حافظ ماله وماعليه ، ص ١٧٣
(٣) مقال مصطفى صادق الرافعى . الرسالة . سنة ١٩٣٥ م ص ١٢٤٣
(٤) (ذكرى الشاعرين) مقال مصطفى صادق الرافعى حافظ الشاعر الاجتماعى ص ٩٨
(٥) فى الادب الحديث . عبد العزيز الدسوقى جـ ٢ ص ١٠٤

من رجال الاصلاح ، فقد كان حافظ يقتبس منهم فيبني عليها او يدخلها فى شعره (١)

واذن نعرض نبذة من قصائده الكثيرة فى هذا الضرب من الشعر كى نطبق عليها آراءه وأفكاره ، ونثبت ماقلنا وقيل فى هذا الباب :

فنبدأ بما عنى به روفائيل مسيحة فقال : (٢)

ولعل من أهم مايعنينا عند استجلاء شعر حافظ ابراهيم ، هو بيان رأيه فى الاخلاق القومية ونحن نراه يلمس مواطن الضعف فى هذه الاخلاق ويصفها وصفا دقيقا فى كثير من الصراحة والتحليل ، ومما لفت نظره بصفة خاصة ماكان عليه المصريون من تواكل وتساهل مع الاجانب ، ثم تقديسهم للالقاب والرتب ، وفوق هذا وذاك انصرافهم عن أحوال بلادهم السياسية . يلمح شاعرنا كل هذا فتهتاج نفسه ويشكو أمره فى قصيدته ... (مع ان قصيدته هذه تعد من ضمن قصائده السياسية . ولكنها تتصل بالاجتماع اتصالا تاما لكونها لونا شديدا وتقريعا واضحا وليس هدفها الا الاصلاح الاجتماعى . ولا تعكس الا عن ثورة ونزعته الاصلاحية) وهى :

انا لو آن من أمتى	خاذلا مابت أشكو النوى
أمة قد قنعت فى سعدها	بغضها الاهل وحب الغربا
تعشق الالقاب فى غير العلا	وتغدى بالنفوس الرتبا
وهى والاحداث تستهدفها	تعشق اللهو وتهوى الطربا
لاتبالى لعب القوم بها	أم بها صرف الليالى لعبا

هذا . ونجد قصائد حافظ تشمل وتحيط كل عيوب الاجتماع . فهناك كانت عيوب اجتماعية كان ينتفع بها المستعمرون ويغتبطون باستقرارها فى المجتمع المصرى .

---

(١) د . كامل جمعة . حافظ ماله وماعليه . ص ١٧٣

(٢) روفائيل مسيحة ـ حافظ ابراهيم الشاعر السياسى ص ٥٣

ضها عبث المصريون باللغة الفصحى ـ ومع الاسف حتى اليوم ـ وكانت من عمل المستعمرين ونواياهم اماته اللغة العربية وبعث اللغة الانجليزية .

فاخذ الشاعر يحمس المصريين ويدفعهم الى الوقوف فى وجه المستعمرين . فقال : (١)

أيطربكم من جانب الغرب ناعب ... ينادى بواأدى فى ربيع حياتى

أيهجرنى قومى غذا الله غيهم ... الى لغة لم تتصل برواة . . . .

سرت لوثة الافرنج فيها كما سرى ... لعاب الافاعى فى سبيل فرات

فجاءت كثوب ضم سبعين رقعة ... مشكلة الالوان مختلفات

وحافظ لا يكتفى بالدفاع عن اللغة العربية فحسب ، ولكنه يدفع عن الشعر العربى ايضا فيقول : (٢)

سل (الفريد) و (لامرتين) هل جريا

مع (الوليد) أو الطائى) بميدان ؟

وهل هما فى سماء الشعر قد بلغا

شأن (النواسى) فى صوغ واتقان ؟

وحافظ دائما يترقب الاحداث الاجتماعية ويتصل بها .

فقد قامت فى مصر ضجة بسبب زواج الشيخ على يوسف صاحب المؤيد من ابنة السيد احمد عبد الخالق السادات ، وهو القصة معروفة .

ففى هذا الحادث نظم حافظ قصيدة يتعى فيها على المصريين وجمودهم واستمساكهم بالتقاليد والخرافات . فيقول مستهلا يشكوى عن حال بلاده : (٣)

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٢٥٤ .

(٢) الديوان جـ ١ ص ٦٤

(٣) الديوان ص ٢٥٦ ـ ٢٥٩

حطمت اليراع فلا تعجبي ... وغنت البيان فلا تعتبي

فما أنت يا مصر دار الاديب ... ولا أنت بالبلد الطيب

ويندد بموقف مصر وشعبه يوم ابرام الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا :

أيعجبني منك يوم الوفاق ... سكوت الجماد ولعب الصبي؟

وكم غضب الناس من قبلنا ... لسلب الحقوق ولم تغضب

ويعاتب شباب قومة غضبا :

أنابته العصر إن الغريب ... مجد بمصر فلا تلعبي

ثم يسخر :

(وكم ذا بمصر من المضحكات ... كما قال فيها " أبو الطيب "

أمور تمر وعيش يمر ... ونحن من اللهو في ملعب

ثم التفت الى الصحافة :

وصحف تطن طنين الذباب ... وأخرى تشن على الأقرب

حتى اذا جاء الى الهدف المقصود ، ساخطا على المصريين وغاضبا بموقفهم من الشيخ :

ونادى رجال بإسقاطه ... وقالوا تلون في المشرب

وعدو عليه من السيئات ... أليست تدور مع الاحقب

..... وينتهي بها

على الشرق مني سلام الودود ... وان طاطأ الشرق للمغرب

لقد كان خصبا بجدب الزمان ... فأجدب في الزمن المخصب

وقد اتهم حافظ بسبب هذه القصيدة لهجوم عنيف ، فاتهم بانه لم يتعمق درس المشكلات الاجتماعية في نظرهم تعمق المعارضين ، وبانه ضاق مهاجمة

الى مثل هذا الكلام اعتقادهم أن مهمة الشاعر الاجتماعي في نظرهم تعدل مهمة متخصص اجتماعي . وهم لذلك يطالبونه بما يطالب به الباحث الاجتماعي من دقة البيان والتمحيص . ولكن الشاعر لا يطلب منه ذلك اذ يكفي أن يكون مصورا لحياة شعبه فيكون صوتا له يصور عيوبه الاجتماعية وان حافظ في الحقيقة هو صوت الشعب فيطالب بانشاء الجامعة وغيرها من المعاهد العليا والمدارس . فلما أجمع بعض قادة الاصلاح على انشاء الجامعة المصرية ، واقاموا حفلا خصصوا ايراده لهذا المشروع نظم قصيدة خاطب فيها سراة البلاد أن يبذلوا المال والمجهود في سبيل الجامعة :

ان كنتم تبذلون المال عن رهب فنحن مدعوكم للبذل عن رغب (١)

وهو يرى أن الجامعة دار العلم العميم وانها كالشهاب بجانب تلك الكتاتيب التي يشبهها بالمصابيح والتي كان الاستعمار يلهي بها الشعب عن طلب التعليم الجامعي الراقي : (٢)

ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ذر الرماد بعين الحاذق الادب

فانشأوا ألف كتاب وقد علموا أن المصابيح لا تغني عن الشهب

كما كان يرى أن الجامعة ضرورة لازمة حتى تجد حاجتها من الاطباء والمهندسين والمحامين والقضاة والفلكيين وعلماء طبقات الارض والمعلمين : (٣)

ومن يحيط بستار الجهل ان طست معالم القصد بين الشك والريب

فما لكم أيها الاقوام جامعة الا بجامعة موصولة السبب

فان حافظ لا يزال يشيد بالتعليم ويتخذ من ثم سبيلا الى الاشادة بالتقدم الغربي

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٢٦٥

(٢) نفس المراجع السابق

(٣) الديوان جـ ١ ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧

ومحاربته الامراض الاجتماعية ، فيشير الى قانون تحريم الخمر الذى أصدرته الولايات المتحدة الامريكية فى ذلك الوقت ، (١)

وحرصتم على العقول فحـــــــره ... ثم عيرا يراه قوم جلالا

وقدرتم دقيقة العمـــر حرصـــا ... وسواكم لا يقدر الاجيالا

ثم يحيى النهضة الامريكية معجبا بها : (٢)

قد تجديتم المنيـــة حتى ... هم ان يغلب البقاء الزوالا

وطويتم فراسخ الارض طيـــا ... ومشيتم على الهواء اختيالا

ثم سخرتم الرياح فســـتم ... حيث شئتم جنوبها والشمالا

ويهتف برجال الدين الجديد ويحييهم : (٣)

وغرستم للعلم روضا انيقـــا ... فوق دنيا الورى يمد الظـلالا

وحللتم بأرضنا فعرفنـــا ... كيف تنمون بيننا الاطفـــالا

وكأن هنا يذكره بتخلف وطنه فيضرع فى صدق :

ليت شعرى متى أرى أرض مصر ... فى حمى الله تنبت الابطـالا (٤)

وان حافظا دائما كان يدعو الى الوحدة والتضامن والتسامح ، وكان دائمـا يئن من الانقسام والخصام أينما مشى بالشفقة على مستقبل أمته :

هلاك الفرد منشؤه توان ... وموت الشعب منشؤه انقسـام (٥)

---

(١) الديوان جـــ١ ص ٣٤٧

(٢) الديوان جـــ١ ص ٣١٣

(٣) الديوان جـــ١ ص ٣١٤

(٤) الديوان جـــ٢ ص ٥٥

(٥) الديوان/روفائيل مسيحـة ص ٥٤

هذا وثارت الفتنة بين عنصرى الامة المصرية فى سنة ١٩١١ م لأسباب لها أساس من الصحة والحقيقة ، ولكن لاسباب مصطنعة مفتعلة ، افتعلها الاستعمار ليطعن المسلمين والاقباط جميعا وليمزق وحدة الصفوف بالتفرقة والفتنة (هذا كانت سياسة الاستعمار فى جميع المستعمرات) ... و .... و .... و حتى عقد مؤتمر قبطى بأسيوط ومؤتمر اسلامى بالقاهرة ردا على المؤتمر القبطى ولكن المصريين بما جبلوا عليه من التسامح الدينى قولوا على المحتل غرضه وردوا كيده الى نحره .

فوقف شاعرنا مهتز الوجدان هائج الخاطر يشعر بالحزن والالم والاشفاق على وطنه لائما مواطنيه من كلا العنصرين على تفتت صخرته ، وتضعضع شوكته متوجها بالخطاب الى الخديوى عباس ليتدارك امته من كيد الكائدين . (١)

مولاى أمتك الوديعة أصبحت ... وعرا المودة بينها تتفصم
نادى بها القبطى ملء لسانه ... أن لا سلام وضاق فيها السلم
وهم أغار على النهى وأضلها ... فجرى الغبى وأقصر المتعلم
فهموا من الاديان مالا يرتضى ... دين ولا يرضى به من يفهم
ماذا دها قبطى مصر فصده ... عن ود مسلمها وماذا ينقم
وعلام يخشى المسلمين وكيدهم ... والمسلمون عن الكايد نوم

كما يؤكد اشتراك عنصرى الامة فى ألم الحياة والكفاح (٢)

قد ضما ألم الحياة وكلنا ... يشكو فنحن على السواء وانتم
انى ضمين المسلمين جميعهم ... أن يخلصوا لكم اذا أخلصتم
رب الاريكة اننا فى حاجة ... لجميل رأيك والحوادث حوم

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٢٩١
(٢) نفس المصدر ص ٢٩٢

فاض طينا من سمائك حكمـــــة تأسو القلوب فان رأيك أحكم

واجمع شتات العنصرين بحزمـــه تأتى على هذا الخلاف وتحسم

وكان السوريون بمصر يؤثرون حافظا ويقدمونه على سائر شعرائهم بمصر . وقـــد بلغ من حبهم له أن أقام جماعة منهم حفلا لتكريمه بفندق شبرد فى مارس سنـــة ١٩٠٨م فالقى حافظ فى ذلك الحفل قصيدة يؤكد فيها حب المصريين للسوريين وأن مصر والشام بلد واحد . بل يصف فى قصيدته جدهم وكفاحهم فـــى الحياة ويعتبرهم مثالا كريما يدعو الى احتذائه والنسج على منواله . ولا داعـــى لنا أن ننقل القصيدة فى بحثنا الوجيز . (١)

والى جانب هذه المسائل الاجتماعية المتصلة بسياسة البلاد ، كانت هناك مشاكل وعيوب اجتماعية منتشرة فى مصر قبل الاحتلال وأثنائه . ولا زال بعضهـــا يجد مكانه بين ظهرانينا ، مما سبب تخلف مصر عن ركب الحضارة ، وكانت هـــذه العيوب سببا فى أن يرمينا المتعصبون من أهل الغرب وأتباعهم من الشرقيـــين بالتأخر والتخلف ، واتهموا الدين الاسلامى أنه بتعاليمه سبب تخلف الشرقيـــين وأنه يحد من تقدمهم الحضارى ويقف بهم عن مواكبة المدنية والسير فـــــى ركابها . (٢)

هذا وحافظ يشيد بالامام الشيخ محمد عبده الذى وقف فى وجه المتحاملين على الاسلام والديـــن (٣)

تباركت هذا الدين دين محمـــد أيترك فى الدنيا بغير حماة؟

تباركت هذا عالم الشرق قد مضـــى ولانت قناة الدين للغمزات

---

(١) راجع الديوان جـــ ١ ص ٢٧٠ ــ ٢٧١

(٢) حافظ ماله وماعليه . دكتور كامل جمعة . ص ١٨٧

(٣) الديوان جـــ٢ ص ١٤٤

ويقول روفائيل مسيحة : (١)

ولم يقف اهتمام شاعرنا باخلاق قومه عند حد أخلاقهم فى حياتهم السياسية العامة ، ولكنه تعداه الى كل مظهر من مظاهر الضعف الخلقى والوهن الاجتماعى ولعل من خير مايمكن أن نسوقه الى القارئ عن مدى اهتمامه هذا ماجاء فى قصيدته عن رحلته الى ايطاليا ، ويلوح أن صاحبنا قد اخذ بما كانت عليه مدنها من أبهة ، وماكانت تذخر به من ايات فنية ومابدت فيه من نظام ، فجره هذا الى عقد مقارنة ظريفة بين مدن هذه البلاد وبلاده هو وهو فى هذه المقارنة يبدى قدرة ملحوظة على النقد . وماكان له أن يتجنى وهو يعيد عن مصر تلك الآفة البارزة التى كان دائما يأخذها على المصريين وهى الانقسام والتقلب فى الرأى فتراه يشير اليها فى هذه الصورة الطريفة .

جوهم فى تقلب واختلاف ... غير أن الثبات فيهم وفير (١)

جونا أثبت الجواء ولكن ... ليس فينا على الثبات صبور

ولدينا من الفنون لباب ... ولدينا من الفنون قشور

وكان لابد له وقد رأى ماعليه هذه المدن من عمران أن يذكر مدن بلاده وهى على اية حال لم تكن تدانيها أبهة وفخامة ... وكان من الطريف حقا أن يرجع السبب فى هذا الى نظام الوقف . فهو يعلل عمران ايطاليا ومدنها بأن نظام الوقف ليس قائما فى بلادهم . وفى هذا التفات ساخر الى مصر ونظام الوقف بها . فنظام الوقف فى مصر كفيل بنشر الخرائب المهجورة والجدران المتداعية (٢)

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٢٣٠

(٢) نفس المصدر

انكر الوقف شرعهم فلهـــذا كل ربع بأرضهم معمور

ليس فيها مستنقع او جـــدار قد تداعى أو مسكن مهجور

كل شبر فيها عليه بنـــاء مشخر او روضة أو غديـــر

وكان يندد بمسلك قومه فى قضاء أوقات الفراغ وانفاق الوقت فى غير طائل بعكس الغربيين الذيـــن : (١)

قسموا الوقت بين لهو وجـــد فى مدى اليوم قسمة لا تجـور

كلهم كادح يكور الى الـــرز ق ولاه اذا دعاه السـرور

لا ترى فى الصباح لاعب نـــرد حوله للرهان جم غفـــير

لا ولا باهلا سليم النواحـى للقهاوى رواحـه والبكـــور (١)

وينعى على قومه سوء النظافة وقذارة الطرق وانعدام النظام : (١)

ولع القوم بالنظافة حـــتى جن فيهم غيهم والفقـــير

فاذا سرت فى الطريق تهارا خلت انى على المرايا أسـير

بل كان حافظا كشاعر اجتماعى يكاد يوجه همه لمحاربة العيوب الاجتماعية من تقاليد واهية متعفنة وعادات توارثها المصريون فاستقرت فى وعينا الاجتماعى ، واستحال معظمها الى بدع فضلة رسبت فى نفوس الشعب ورسخت ، فيهاجم زيادة الضريحة الاولياء ، ويبين انهم لا ينفعون ولا يضرون ، ويتهكم من الساعين اليها ، الذيـن ينذرون النذور ويتوسلون اليها فى قضاء الحاجات : (٢)

احياؤنا لا يرزقون بدرهم ويألف ألف ترزق الاموات

---

(١) الديوان جـــ١ ص ٢٣١

(٢) الديوان جـــ١ ص ٣١٨

من لسى بحظ النائمين بحفرة قامت على أحجارها الصلوات
يسعى الانام لها ويجرى حولها بحر النذور وتقرأ الايات
ويقال هذا القطب باب المصطفى ووسيلة تقضى بها الحاجات

ويهاجم الصوفية من أرباب الطرق ، وكشف الستار عن المحتالين باسم الدين الذين يؤقمون السذج فى حبائلهم : (١)

كم طالم مد العلوم حبائلا لوقيعة وقطيعة وفراق
وفقيه قوم ظل يرصد نقهه لكيدة أو مستحل طلاق
يمشى وقد نصبت عليه عمامة كالبرج لكن فوق تل نفاق
يدعونه بعد الشقاق وما دروا ان الذين يدعون خدن شقاق

(٢) ويرى حافظا حربا على كل لون من ألوان الفساد الاجتماعى فهو يطعن الرشوة فى صميمها (وهو داء الموظفين العضال) فيبين كيف انها داء عضال يؤدى بالبلاد الى فساد الحال ، وانعدام الامانة واستشراء المحسوبيات والاستثناءات التى تكون دائما على حساب الجماعة العظمى من الشعب . وما يزيد الامر خطورة ان هؤلاء المرتشين هم موظفو الدولة المتعلمون . وهل ينفع العلم عاريا من الاخلاق ؟ : (٣)

والعلم ان لم تكتنفه شمائل تعليه كان مطية الاخفاق
لاتحسبن العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربه باخلاق

وهو يهاجم صنوف هذه الطبقة الفاسدة . فيهاجم المهندس يؤثر بماء النيل من يدفع له رشوة ، ويحرم من الماء من لايقدر على رشوته ! (٤)

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٢٨٠
(٢) د . كامل جمعة حافظ ماله وماعليه ص ١٨٦
(٣) الديوان جـ ١ ص ٢٨٠ (٤) نفس المصدر ص ٢٨١

ومهند من للنيل بات بكفه ... مفتاح رزق العامل الطراق

تندى وتيبس للخلائق كفه ... بالماء طوع الاصفر البراق

لاشيء يلوى من هواه بخده ... فى السلب حد الخائن السراق

ويهاجم الاطباء الذين لا يراعون فى عملهم مبادىء الانسانية وقوانين مهنتهم المقدسة التى تتطلب الشرف والنزاهة والرحمة والشفقة والرأفة بالمرضى من الفقراء والضعفاء : (١)

وطبيب قوم قد احل لطبه ... مالا تحل شريعة الخلاق

قتل الاجنة فى البطون وثاره ... جمع الدوانق من دم مهراق

أغلى وأثمن من تجارب علمه ... يوم القفار تجارب الحلاق

ولا ينسى أبناء طائفته وفئته من الادباء والشعراء والكتاب الذين لا يلتزمون فى فنهم وفى كتاباتهم جانب الحق ، والذين يشوهون الحقيقة ويطمسون معالمها لهوى فى نفوسهم أو لمطمع شخصى أو حزبى أو طائفى : (٢)

واديب قوم تستحق يمينه ... قطع الانامل أو لظى الاحراق

يلهو ويلعب بالعقول بيانه ... فكأنه فى السحر رقية راقى

فى كفه قلم يمج لعابه ... سما وينفثه على الاوراق

يرد الحقائق وهى بيض نصع ... قد سية علوية الاشراق

فيردها سودا على جنباتها ... من ظلمة التمويه ألف نطاق

عريت عن الحق المطهر نفسه ... فحياته ثقل على الاخلاق

ثم يشير الى الداء الاجتماعى وأثر التواكل والتخاذل فى تراخى النهضة

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٢٨١

(٢) الديوان جـ ١ ص ٢٨٢

وفى تخلف الامة المصرية : (١)

ان فينا لولا التخاذل أبطا ... لا اذا ما هم استقلوا اليراعا

وعقولا لولا الخمول تولا ... ها لفاضت غرابة وابتداعا

ودعاة للخير لو انصفوهم ... ملئوا الشرق عزة وامتناعا

كاشف الكهرباء ليتك تعنى ... باختراع يروض منا الطباعا

ألة تسحق التواكل فى الشر ... ق وتلقى عن الرياء القناعا

كما يندد بتخاذل المصريين وقعودهم عن استغلال موارد بلادهم يشعر عليهم تسليم قيادهم الى الاجانب وارخاء حبل اقتصاد مصر لهم على غاربه حتى بثوا شركاتهم ومصارفهم فى البلاد : (٢)

وما الموت الزؤام اذا عقلنا ... سوى الشركات حل لها الحرام

لقد سعدت بغفلتنا فراحت ... بثروتنا وأولها (الترام)

فياويل القناة اذا احتواها ... بنو (التاميز) وانحسر اللثام

ويكتب دكتور كامل جمعة فى كتابة حافظ ماله وماعليه : (٣)

وحافظ لا ينسى فى نقده طائفة الاغنياء الذين انتهت اليهم الثروات لم يحركوا لها قدما ولم يصبهم أى عنت فى كسبها . واغلب هؤلاء الوارثين فى سن الشباب والطيش ينثرون ثرواتهم ذات اليمين وذات الشمال : (٤)

وذى ارث يكاثرنا ... بمال غير مكتسب

---

(١) الديوان جـ١ ص ٢٦٠ (٤) الديوان جـ٢ ص ١١٠

(٢) الديوان جـ٢ ص ٥٧

(٣) د . كامل جمعة ـ حافظ ابراهيم ماله وماعليه ص ١٩٤

والوارث الفنى ان لم يكن صاحب لقب بذل فى سبيل الحصول عليه الاموال الطائلة : (١)

وهل فى مصر مفخرة سوى الالقاب والرتب

ويصور حياة هؤلاء الشباب وما يضيعون من شبابهم وأموالهم فى سبيل متع رخيصة تذروها الرياح : (٢)

كم وارث غض الشباب رميته بغرام راقصة وحب هلوك

ألبسته الثوبينة فى حاليهما تيه الفنى وذلة المغلوك

ويحس مرارة فى نفسه لهذه العيوب الاجتماعية التى الفها المصريون ولم يحاولوا منها خلاصا ولا فكاكا . ولذلك نجده يعنف فى ايقاظهم من غفلتهم التى استولت عليهم : (٣)

فهبوا من مراقدكم فان الوقت من ذهب

وتمضى الحياة بالمصريين وحافظ واقف على الطريق يرشدهم الى الصراط السوى مستنهضا هممهم : (٤)

قم يا ابن (مصر فانت حر واستعد مجد الجدود ولا تعد لسراح

عمر وكافح فى الحياة فهذه دنياك دار تناحر وكفاح

---

(١) الديوان جـ ٢ ص ١١٠

(٢) الديوان جـ ١ ص ٣١٤

(٣) الديوان جـ ١ ص ١١١

(٤) الديوان جـ ٢ ص ١٠٣

وخض الحياة وان تلاطم موجهـــا خوض البحار رياضة السبـاح

واجعل عزائمك قبل خطوك اتئـــدا لاتحسبن العمر كالضحضاح

وهو دائما فى توجيه ابناء مصر يرى فى الافق البعيد امامه مثلا يحتذى ، يلفت اليه انظارهم ليترسموا خطاه . ذلك مثل الغرس المكافح الصادق النية فى كفاحه لا يثنيه عن عزمه ما يلقى حين يفوز بطلبته : (١)

وانظر الى الغرس كيف سمت به بين الشعوب طبيعة الكداح

والله ما بلغت بنو العرب المنى الا بنيات هناك صحـــاح

ركبوا البحار وقد تجمد ماؤهـــا والجو بين تناوح الارواح

والبر مصهور الحصى متأججـــا يرمى بنزاع الشوى لـــواح

يلقى فيبلوها الزمان بهمة عجب ووجه فى الخطوب وقاح

ويشق اجواز الفلاز مغامـــرا وعر الطريق لديه كالصحصاح

ثم يقول مخاطبا المصرى : (٢)

فانهض ودع شكوى الزمان ولا تنـح فى فادح البؤس مع الالـــواح

واربح لمصر برأس مالك عـــزة ان الذكاء حباله الارباح

وقد اتصل حافظ بجميع طبقات الامة المصرية . المتفاوته فى الرزق والثقافة والطباع فهناك الاغنياء الموسورون ينفقون ويتمتعون وهناك البائسون المحرومون وبين هاتين الطبقتين المتفاوتين طبقة وسطى تكافح فى سبيل الحياة . وبين هذه الطبقات ليس التعاون والبر . فالاغنياء ـ البخلاء المعتزون بالمال الحريصون على كنزه ـ لا يحسنون الى اقاربهم وذوى رحمهم لان المال هواهم

---

(١) الديوان جـ ٢ ص ١٠٣

(٢) الديوان جـ ٢ ص ١٩٤

اتخذوه ربا فأهملهم وأعاهـم ٠

وتجسمت مأساة هذا التناكر بين طبقات الامـة فى نفس حافظ الشاعرة التى ذاقت من البؤس ألوانا ، فكان يشفق الطبقة الكادحـة ٠ فنجده يهاجـم غلاء الاسعار : (١)

أيها المصلحون ضاق بنا العيـ ـش ولم تحسنوا عليه القيامـا
عزت السلعة الذليلة حـتى باتت مسح الحذاء خطبا جساما
وغدا القوت فى يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما

ثم يضيف بصورة تثير النفوس : (٢)

أيها المصلحون أصلحتم الار ض ويتم عن النفوس نياما
أصلحوا أنفسا تأضر بها الفقر وأحيا بموتها الاثاما
وأغيثوا من الغلا نفوسـا قد تمنت مع الغلاء الحماما
أوشكت تأكل الهبيد من الفقـ ـر وكادت تذود عنه النعاما
قد شقينا ونحن كرمنا اللـ ـه بعصر يكرم الانعاما

وقد ينظر حواليه فيجد طبقة الفقراء ترزح تحت اثقال الغلاء ، ثم ينظـر فيجد قلبا رحيمة هزتها الانسانية فمدت يدها لتعين هؤلاء وتمسح بيـد رحيمة لتزيل عنهم الباساء ٠

فيصور فى قصيدته امرأة حاملا مالها من زاع ولا وال ، قد مض الحسام بوالديها

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٣١٦

(٢) نفس المصدر ص ٣١٦ ـ ٣١٧

وبعمها والخال ، فلما عرف حافظ أمرها حملها الى دار رعاية الاطفال ، حيث لقيت من الرعاية والعناية ما رد عنها كيد دائها القتال : (١)

جاءوا بانواع الدواء وطوفوا ... بسرير ضيفتهم كبعض الآل

وجسنا الطبيب يجس نبضا خافتا ... ويرود مكمن دائها القتال

لم يدر حين دنا ليبلو قلبها ... دقات قلب أم دبيب نمال

فحافظ يمجد هذه الانسانية العالية التي تدفع جماعة رعاية الاطفال : (٢)

خير الصنائع في الانام صنيعة ... تنبو بحاملها عن الاذلال

واذا النوال أتى ولم يرق لمه ... ماء الوجوه فذاك خير نوال

لم يدر ناظره عريانا يسوى ... أم كاسيا في تلكم الاسمال

فكأن ناحل جسمه في ثوبه ... خلف الخروق يطل كمن غربال

لولاهم كان الردى وقفا على ... نفس الفقير ثقيلة الاحمال

فتسابقوا الخيرات فهي أمامكم ... ميدان سبق للجواد النال

والمحسنون لهم على احسانهم ... يوم الاثابة عمرة الاشمال

ولحافظ قصيدة اخرى مماثلة فيذكر بالزكاة ، وانها السبيل الى رضاء الله ، وان القادرين لو أخلصوا في اخراج الزكاة ما عرف البؤس طريقة المجتمع المصري: (٣)

وعلمنا أن الزكاة سبيل الله ... قبل الصلاة قبل الصيام

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٢٧٧

(٢) نفس المصدر ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩

(٣) الديوان جـ ١ ص ٢٨٧

غصها الله فى الكتاب بذكـــــر فهى ركن الاركان فى الاســـلام

لو وفى بالزكاة من جمع الدنـــ ـيا وأهوى على اقتناع الحطام

ماشكا الجوع معدم او تصـــدى لركوب الشرق والاثـــــام

وحافظ يرى أن عليه واجبا نحو البؤساء ، فلا بد أن يعلن صرختهم فـــى المجتمع وأن يهز المتغافلين عن مساعدتهم . فهو لاينسى أيامه الاولى الـــتى ذاق فيها الام اليتم و تجرع فيها كئوس الفاقـة (١)

لم أقف موقفى لأنشد شعـــــرا صب فى قالب بديع النظـــــام

انما قمت فيه والنفس نشـــــوى من كئوس الهموم والقلب دامـــى

ذقت طعم الاسى وكابدت عيشـــا دون شربى قذاه شرب الحمـــام

منقلبى فى الشقاء زمانـــــا وتنقلت فى الخطوب الجســـام

ومشى الهم ثاقبا فى فؤادى ومشى الحزن ناخرا فى عظامـــى

فلهذا وقفت استعطف النـــا س على البائسين فى كل عـــام

وحافظ يحس مأساة الطفولة البشردة احساسا عنيفا ، فيلقى قصيدة بين يـــدى السلطان فصين كامل فى حفل اقامته الجمعية الخيرية الاسلامية بدار الاوبرا السلطانية : (٢)

لم يبق أهلى ســـــــوى ذكرتنا ساعة الصحـــــاب

أشى يرنحنى الاســـــى والبؤس ترنح الشـــــراب

فلكم ظللت على طـــــوى يوسى وبت على تبـــاب

والجوع فراش لـــــــه ظفر يصول لـــه وناب

فكأنه فى مهجـــــتى نصل تغلغل للنصـــــاب

---

(١) الديوان جـــ١ ص ٢٨٧ ــ ٢٨٨

(٢) الديوان جـــ١ ص ٣٠٢ ــ ٣٠٤

ثم يقول :

(جمعيـــــة خيريـــــة) قامت لتخفيف المصـــــاب

قد كان فيها عـــــــده غوثا يلبى من أهـــــاب

لم يدع صاحـا الـــــى العـاشهـــــا الا اجاب

والشعور الذى يعطف حافظ نحو الطفولة والدعوة للبر بها لايذوى فى نفسه بمرور الايام ولاتخمد جذوته بتقدمه فى السن ، بل ان هذا الشعور كان دائما يتأجج فى نفسه فهو يحس فى الحياة محروما من الاستقرار العائلى ومن حنان الأبوين وعطف الزوجة وتعلق الابناء فكان يحس فى اقصى شعوره انه طفل كبير محروم من مباهج الحياة . وطبيعى أن يعطف الطفل الكبير على اخوته الصغار ويدعو للبر بهم ، والاحتفاظ اليهم بمساعدة الجمعيات القائمة على رعاية الطفولة . فيقول : (١)

قد أجبنا نداءكن وجئنـــــا نسأل القادرين بعض النـــوال

لو ملكنا غير المقال لجدنـــا ان جهد المقل حســـن المقال

ثم يشيد فى قصيدته بجمعية أعلوها من السيدات ذوات القلوب الرقيقـــة ويطالب الحاضرين بالتبرع وتأييد دعوة الاحسان كما يشكر رجال الاسعاف ومايؤدون من خدمات لتخفيف ويلات الانسانية :

أى ذوات الجمال عشـــن للهـــ ـــوى متن قدوة للرجـــــال

لم يكونوا ليدركوا المجد لـــولا كن أو يسلكو سبيل المعالـــى

---

(١) الديوان جـــ١ ص ٣١٢ ــ ٣١٩ ــ ٣١٢

قمن علمنا المروءة والعطـــــف على الهاشمين والـــوال
أيدوا كل مجمع قام للـــبر بجاه يظله أو بمـــــال
ورجال الاسعاف أنيل لـــولا شهوة الحرب من رجال القتـال
يسهرون الدجى لتخفيف ويـل أو بلاء مصوب أو نكـــــال
كم كريح لولاهم مات نزفـــا في يد الجهل أو في يد الاهمال
كم صريح من صدمة او صريـــع من سموم مخدر الاوصـــال
كم حريق قد احجم الناس فيـه عن ضحايا تئن تحت التـــلال
يترامون في اللهيب سراعـــا كترامي القطا لورد الـــولال
لا لشيء سوى المروءة تحـــلو طعمها في فم المروءة الوالـــس

وان لحظا يرى نفسه حامي الطفولة والهاتف بدعوتها . فهو يفخر بأنه شـــاعر اجتماعي لا يقف الى جواره في هذا الميدان شاعر اخر ففي سنة ١٩١٩ يدعو الـــى معاونة ملجأ الحرية الذي يؤوي الايتام وينشئهم تنشئة صالحة ، ويقول في قصيدتـه ان اغنياء مصر قد اتسعت في نفوسهم عاطفة البر وانهم اليوم غيرهم بالامـس : (١)

لا تسيء ظنا بمثرينا فقـــــد تاب عن اثامه واستغفرا
كان بالامس اقصى همـــــه ان اتى طارقه ان يظهرا
فغدا اليوم يواسي شعبـــــه وهو لا يرغب في أن يشكرا

ويرسم الطريق امام الاغنياء ويقـــول :

يا رجال الجد هذا وقتـــه آن أن يعمل كل ما يرى
ملجأ أو مصنعا أو مصـــــرفا أو نقابات لزراع القرى
أنا لا اعذر منكم من ونـــــى وهو ذو مقدرة أو قصرا

---

(١) الديوان جـــ ١ ص ٣٠٨

ثم يعطف على الطائفة الاخرى من البائسين ، وهى طائفة المكفوفين الذين سلبتهم الاقدار نعمة الابصار ، فيطالب ببناء المدرسة لهؤلاء المكفوفين ، ويؤكد حقهم على اخوانهم الذين يتمتعون بوفرة المال ونعمة البصر : (١)

ان حق الضرير عند ذوى الابـــ ـــصار حق مستوجب التقديـــس
لم يضره فقدانه نور عينيـــ ـــه اذا اغاض عنهما بأنيـــس
آنسوا نفسه اذا اظلم العيـــ ـــش بعلم فالعلم انس النفوس

ثم يشير الى فائدة قد يجنيها المجتمع من صنيعهم ، فربما انجبت مدرسة العميان عبقريا يكون فى مجتمعه قائدا العميا أو أديبا يشار اليه بالبنان مثل الدكتور طه حسين :

أكملوا نقصه يكن عبقريا مثل " طه " مبرزا فى الطروس
كم رأينا من أكمه لا يجارى وضرير يرجس ليوم عبوس

وان شاعرنا الاجتماعى لا يكتفى بهذا القدر بل يمد يد العون الى كل بائس وعاجز وفقير ، فهناك المثل احمد افندى ابو العدل ، الذى قعدت به الشيخوخة وهناك اسرة زميله محمود حبيب ، دعا سليم سركيس الى اقامة حفل يخصص ما يجمع منه لمعونة الاول واسرة الثانى . فاسهم حافظ فى الحفل بقصيدة شكر فيها سليم سركيس لمشروعه : (٢)

لولا سليم لم يقل قائـــــل ولم يجد من جاد بالامـــــس

ثم يذكر حال ابن العدل الفنان وما انتهت اليه من الفقر والسغبة :

كانت له فى حلقه ثروة من نبرة تشجى ومن جرس
فغالها الدهر كما غاله حتى غدا كالطلل الدرس

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٣٠٦

(٢) الديوان جـ ١ ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨

ثم يستجدى الحاضرين فى حياء وانكسار كأنه تقمص شخصية ابى العدل :

فاكتسبوا الاجر ولا تبتغوا شراءه بالثمن البخس

ومثل هذا البؤس أصاب جماعة من أبناء العروبة المقيمين فى مصر وذلك أن الطلبة السوريين فى الازهر انقطعت موارد هم المالية بعد قيام الحرب الكبرى بانقطاع صلتهم باهلهم وذويهم فاقامت جمعية الاتحاد السورى فى دار الاوبرا السلطانية حفلا لاعانة هؤلاء الطلبة .

فان روح العطف فى قلب شاعرنا الاجتماعى اتسعت لاخوانه الشاميين وطبيعى ان يسارع حافظ ويشارك بقصيدة فى مثل ذلك الحفل الخيرى : (١)

اسرفت فى الخلق حتى أوشكوا ان يبيدوا قبل ميعاد البشر

فاحمدوا ثم احمدوا الله على نعمة الامن وطيب المستقر

ان فى الازهر قوما نالهم من لظى نيرانها بعض الشرر

أصبحوا — لاقدر الله لنا — فى غاء وشقاء وضجر

نزلاء بيننا ان يرهقوا أو يضاموا انها احدى الكبر

فاعينوهم فهم اخوانكم مسهم ضر وبابتهم غير

اقرضوا الله يضاعف اجركم ان خير الاجر خير مدخر

وتعتد معارض البؤس الاجتماعى ولوحاته تحت انظار شاعرنا الاجتماعى فلا يترك منها معرضا دون تسجيله ، فمن ذلك ما حدث من حريق مهيت غمر فقد شبت النار فيها يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٠٢ ، وأخذت تلتهم كل ما القيته او صادفته فى المدينة اسبوعا كاملا . وهلك بسبب هذا الحريق كثيرون ودمرت كثير من الدور والمتاجر : (٢)

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٣٠٠

(٢) د . كامل جمعة حافظ ماله وماعليه ، ص ٢١٢

وقد تألفت جماعة من الاعيان لتخفيف ويلات هذا المصاب ، وتسابق الخيرون فجادوا بما عندهم ، وهز الحادث كيان حافظ فصاح من أعماقه : (١)

رب ان القضاء انحى عليهم ... فاكشف الكرب واحجب الاقدار

ومر النار أن تكف اذاها ... ومر الغيث ان يسيل انهار

أين طوفان صاحب الفلك يروى ... هذه النار فهى تسكو الاوار

الى اخر القصيدة

وشارك الاجتماعى ـ حافظ ابراهيم ـ الذى اتسعت نفسه لالام قومه ، ورقت عاطفته الكبيرة يتألم للجماعات التى نكبتها الحياة واخنت عليها المقادير ، حافظ هذا بدأت نفسه تتسع ، وعاطفته الانسانية العالية تمتد لتتأثر بمصائب الانسانية كلها .

ففى سنة ١٩٠٨ كان زلزال " مسينا " وأصاب الايطاليين كثير من عبث الاقدار والخراب والدمار فلم يقف حافظ أمام الحادث الذى جرى خارج مصر منحبس العاطفة بل جرى وهزه الحادث هزا عنيفا وحرك فى قلبه أعمق مشاعر الانسانية وانبل عواطف الرحمة والمواساة فهو يصور الحادث ويصف الزلزال كما يصف ماجرى للايطاليين وما أصابهم من ظلم الاقدار : (٢)

بغت الارض والجبال عليها ... وطغى البحر ايما طغيان

تلك تغلى حقدا عليها فتشـ ... ـق انشقاقا من كثرة الغليان

فتجيب الجبال رجما وقذفا ... بشواظ من مارج ودخان

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٢٥٠ ـ ٢٥١

(٢) الديوان جـ ١ ص ٢١٦ ـ ٢١٧ ـ ٢١٨

وتسوق البحار ردا عليهـــا جيش موج نائى الجناحين دانى
فهنا الموت أسمر اللون جـون وهنا الموت احمر اللون قانـــى
جند الماء والثرى لهلاك الخـ ـــق ثم استعان بالنيـــران
ودعا السحب عاتيا فامدتـــ ـــه بجيش من الصواعق ثانـــى

ثم يقـول :

رب طفل قد ساخ فى باطن الار ض ينادى : امى ابى او ركانـــى
وفتاه هيفاء تشوى على الجمـ ـر تعانى من حرة ما تعانـــى
وأب ذاهل الى النار يمشـــى ستميتا تمتد منه اليـــدان
باحثا عن بنتته وبنيـــه مسرع الخطو مستطير الجنـان
تاكل النار منه لاهونـــاج من لظاها ولا اللظى عنه وانى

ويكتب دكتور حسين هيكل معلقا على قصيدته هذه : (١)

" وهذا الجانب التصويرى كان أقوى الجوانب فى حياة نفس حافظ . ولو أن حافظا استمر فى هذا الطريق الذى تهيأته له ربة الشعر لحلق فى الشعر العالمى الى سماء غاية فى الرفعـــة "

وكتب سامى الدهان :

" وما أحسب أن فى الطغيان من وفق الى رسم الزلزال واثره فى السكان كما وفق حافظ فى قصيدته هذه ، فقد وصف الارض والجبال والبحر والمياة وصـــور المعركة التى قامت بين هاصر الطبيعة تغلى بالحقد وتثور بالوجدة فترزع الموت فى كل مكان ولا ينجو منها فتى او فتاة ولا يجنبها أب أو أم ، وانما يلوذ جميعهم

---

(١) محمد حسين هيكل . السياسة الاسبوعية سبتمبر سنة ١٩٣٢ م

بالفوضى الناشبة ، ويتعلق بحبال اليأسيين النار والماء .

وخير للأديب الايطالي الحديث أن يترجم هذه اللوحة البارعة الى صفحاته فيجعل منها اثرا في المتاحف الادبية صورة للشعر المصري الحديث : (١)

وان شاعرنا الاجتماعي له حظ موفور في جميع نواحي الاجتماع فهو يساند جميع حركات الاصلاح الاجتماعي .

فانه لقد كانت المرأة المصرية في اواخر القرن التاسع عشر تعيش في ظلال من الحياة الماضية ولكن نور العلم اشرق عليها وفتح امامها آفاقا من التطلع الى الرقي والتقدم كلما حظيت بنصيب من الثقافة وكلما تفتحت امامها ابواب الاتصال بحياة اختها المرأة الغربية .

وجاء قاسم امين المصلح الاجتماعي فتزعم في مستهل القرن العشرين الدعوة الى تحرير المرأة وتخليصها مما وقع عليها من ظلم وهتك خلفته القرون .

وكان لدعوته صدى مقاومة عنيفة من الرجعيين الذين تذرعوا بحجة الدين في مهاجمته ، فوقف حافظ في مستهل هذا القرن الى جوار قاسم امين يساند بشعره ، ويشد من أزره فنشر قصيدة عنوانها الى " محرر المرأة " يقول فيها : (٢)

اقاسم ان القوم ماتت قلوبهم	ولم يفقهوا في السفر ما أنت كاتبه
الى اليوم لم يرفع حجاب ضلالهم	فمن ذا تناديه ومن ذا تعاتبه
فلو أن شخصا قام يدعو رجالهم	لوضع نقاب لاستقامت رغائبه
ولو خطرت في مصر حواء امشا	يلوح محياها لنا وثراقبه
وفي يدها العذراء يسفر وجهها	تصافح منا من ترى وتخاطبه

---

(١) سامي الدهان ، شاعر الشعب ص ٩٣

(٢) ديوان حافظ ص :

وخلفهما موسى وعيسى واحمـــد وجيش من الاملاك ماجت كواكبه

وقالوا لنا رفع النقاب محـــلل لقلنا نعم حق ولكن بخانبه

فى هذه الابيات نرى سخرية حافظ من الرجعيين لازعة ، فهو يعلل صدهم عن دعوة قاسم امين بانه يطلق الصواب وجاء بالحق ، وهم لا يفهمون الصواب ، ولا يسلكون سبيل الحق ، ولا يتبعونه .

ولكن موكب الحياة تسير ونهضة المرأة تتقدم ويكثر اتباع قاسم امين وتتحرر المرأة المصرية من بعض التقاليد الجاهلية ، وتسفر عن وجهها وتخالط الرجال وتأخذ بنصيبها من التعليم والحياة الكريمة . غير أن حافظا يبدو عليه الخوف والتردد فى مناصرة قضيتها . ففى قصيدة اخرى يقف موقفا وسطا بين المغالين فى المطالبة بحريـــة المرأة وبين الذين يتزمتون . فاذن شاعرنا يمسك العصا من وسطها لا يؤيد التحرر الجامح ولا التقاليد الكامح : (١)

من لى بتربية النساء فانهـــا فى الشرق علة ذلك الاخفاق

الام مدرسة اذا اعددتها اعددت شعبا طيب الاعراق

الام روض ان تعهده الحيـــا بالرى أورق ايما ايـــراق

الام استاذ الاساتذة الالـــى شغلت مآثرهم مدى الافـــاق

ثم يقول :

انا لا أقول دعوا النساء سوافـــرا بين الرجال يجلن فى الاسواق

يفعلن افعال الرجال لواهيـــا عن واجبات نواعس الاحـــداق

فى دورهن شئونهن كثـــيرة كشئون رب السيف والمـــزراق

---

(١) الديوان جـــ١ ص ٢٨٢ ــ ٢٨٣

ثم يقول :

كـلا ولا آدعوكـــم أن تسـرفوا فى الحجب والتضييق والارهـاق
ليست نساؤكم حلى وجواهـــرا خوف الضياع تصان فى الاحقـاق
ليست نساؤكم أثاثـا يقتـــنى فى الدور بين مخادع وطبـــاق
فتوسطوا فى الحالتين وانصفـوا فالشر فى التقييد والاطـلاق
ربوا البنات على الفضيلة فانهـا فى الموقفين لهن خير وثـــاق
وعليكم أن تستبين بناتكـــم نور الهدى وعلى الحياء الباقـى

وأرى أن حافظا كان على حق فى وساطته . فالخير فى الوسط بين التقيد التام والتحـرر المطلـق .

حافظ شاعرا

بعد ماتحدثنا عن اجتماعيات حافظ ، نرى من الواجب أن نلقى نظرة عابرة على فنونه الاخرى ، فنتجول برهة فى مجالات شعره من السياسة والمديح والرثاء وما الى ذلك .

واننا لانجد من الشعراء المحدثين شاعرا يشبه حافظا فى اختلاط أغراض الشعر فى قصيدته ، فاننا نجد فى اجتماعياته سياسية ، وفى سياسته اجتماعية وفى مدائحه شكوى ، وفى شكواه ورثائه مدائح . فانه من الصعب الفصل فى قصائد حافظ بين أغراض متباينة ، اذ كثيرا ماتتضمن القصيدة الواحدة غرضين او اغراض مختلفة . وخاصة يلاحظ هذا فى شعره السياسى اذ كثيرا مايتضمن منزعا اجتماعيا واضحا لما كان من تداخل السياسة بالمجتمع ، اذ كثيرا ماتكون المشكلة السياسية متفرعة من مشكلة اجتماعية وبالعكس ، فلا غرو أن وجدنا فى شعر حافظ السياسى شعرا اجتماعيا ، وفى اجتماعياته شعرا سياسيا .

فيقول الاستاذ احمد الطاهر فى هذا الباب : (١)

" من العسير أن نفرق بين مانسميه اليوم شعرا سياسيا ومانسميه شعرا اجتماعيا ذلك ماجرى عليه الناس فى تقسيم الشعر الحديث حين يعنون بجمع شعر الشعراء ويقسمون الديوان ابوابا . فالشعر السياسى عندنا شعر اجتماعى والحديث السياسى انما هو حديث مشكلة تعنى بها الامة ، ولها فيها اثر ويتجه اليها تفكير الشعب عامته وخاصته ، والشعر الاجتماعى فيه الكثير من مداخل السياسة فالتفرقة بين الاثنين عسيرة او غير ممكنة .

---

(١) محاضرات عن حافظ ابراهيم ، احمد الطاهر ، ص ٤٢

السياسيات :

ولكننا نقف عند بعض القصائد التي حواها ديوان حافظ .

فاذا استعرضنا شعر حافظ السياسي وقفنا على الوان مختلفة من القصائد ولعل اهمها ما يتعرض فيه للانجليز وموقفهم من مصر والسودان . فمصر بلد محتل والانجليز يسيطرون على كل مرفق فيه بواسطة عبيدهم الذين ينطق بلسانهم ، يتصرف بأهوائهم ، ويملأ البلاد بأسا وبطشا .

ولا شك ان حافظا كان ممثلا لشعبه وصوتا لمصر ينطق بلسانها وعواطفها . فقد برز في هذا الميدان واشتهر وعرفه الناس .

فان حافظا عشق مصر عشقا ملك عليه عاطفته ووجدانه حتى ان وطنياته وسياسياته هي الدعامة التي تستند اليها مكانته باعتباره شاعرا مجاهدا في سبيل وطنه ولقد ساقه هذا الحب الى ان يجعل من نفسه بوقا وطنيا لامته .

فانه كان خير مترجم للامة ، التصق بعواطفها وتعمق روحها واندمج باحساسها وهذه العطفة والصادقة لاتتضح في قصائده التي قالها في الاحداث الاجزئية التي ألمت بمصر ولكن تتضح في جملة شعره . ويكتنف هذه العاطفة احيانا غموض متعمد تمليه الظروف أو تحجبه تهكم يحتمي وراءه ، او ملاينة تبدو ضعفا ، فيبدو مواربا مداويا ، وقد يبدو مجاملا للانجليز أحيانا لضرورات الحياة وكانت تمليها عليه احداث عصره (١)

ولا يمكن لنا أن نستغرق كل ماقال في هذا الباب ولكننا نقدم نموذجا واضحا من شعره السياسي

فنتحدث أولا عن يأسه من جلاء الانجليز عن السودان وانه باق حتى يوم النشور

---

(١) حافظ ماله وماعليه . د . كامل جمعة . ص ١١٤

فقـــال : (١)

أرى مصـر والسودان والهند واحـدا بها "اللرد" و "الفيكت يستبقان

وأكبر ظني أن يوم جلائهـــــم ويوم نشور الخلق مقترنـــــان

ثم نرى مرة يشن الغارة على الانجليز عند حادثة "دنشواى" ، فيلهب الشعور ويذكي الحماس ويستثير الدموع في تهكم واسى : (٢)

أيها القائمون بالامر فينـــا هل نسيتم ولائنا والـــودادا

خفضوا جيشكم وناموا هنيئـــا وابتغوا صيدكم وجوبوا البـــلادا

انما نحن والحمام ســـواء لم تغادر اطواقنا الاجيـــادا

لاتظنوا بنا العقوق ولكـــن أرشدونا اذا ضللنا الرشـــادا

جاء جهلا لنا بأمر وجئـــتم ضعف ضعيفة قسوة واشتدادا

أحسنوا القتل ان ضننتم بعفـــو ألفوســـا أصبحتم أم جمـــادا

ليت شعري أتلك محكمة التفتيـش عادت أم عهد نيرون عـــادا

وانظروا حافظ يجسم لنا شكوى مصر من الاحتلال البغيض (٣)

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبـت حناشيه حتى بات ظلما منظمـــا

تمن علينا اليوم ان اخصب الثـــرى وان أصبح المصري حـــرا منعمـــا

أعد عهد اسماعيل جلدا وسخـــرة فانى رأيت المن انكى والمـــا

علتم على عز الجهادوذ لنـــا فاغليتم طينا وارخصتـــم دمـــا

اذ اخصبت أرض وأجدب أهلها فلا أطلعت نبتا ولاجادها السما

الـــى اخر الابيات

---

(١) الديوان جـــ٢ ص ٥

(٢) الديوان جـــ٢ ص ٢٠

(٣) الديوان جـــ٢ ص ٢٦

فنراه هكذا مرة ملاينا مداريا • ومرة ثائرا مهاجما •

وكانت المداراة طابعا عاما لكل رجال الفكر وقادة الحركة الاصلاحية فـــى هذا الوقـــت •

ولم يجرؤ أحد أن يصيح كما صاح حافظ أيام فرضت الرقابات على المطبوعـــات وايام اغلقت الصحف ، وايام ملئت السجون بالاحرار ولم يخفت صوت حافظ وانطلـــق يندد بهذا الارهـــاب (١)

فيقـــول : (٢)

ان البليـــة ان تباع وتشـــترى ... " مصر " ومافيها والا تنطقـــــا

كانت تواسينا على الامشـــــا ... صحف اذا نزل البلاء واطبقـــــا

فاذا دعوت الدمع فاستعصى بكت ... عفا اسى حتى تغص وتشرقـــــا

كانت لنا يوم الشدائد اسهمـــا ... نرمى بها وسوابقا يوم اللقـــــا

مالى انوح على الصحافة جاذع ... امنوا صواعقها فكانت احذقـــــا

ولا يزال حافظ على هذه الشاكلة ماضيا فى طريقة يحمى الشعب ويشعل فيـــه جذوة الوطنية حتى دخل فى غل الوظيفة سنة ١٩١١ م فقد قيدت الوظيفـــة حافظا الى حد ما فلم نر له كثرة من القصائد السياسية والوطنية كما كان العهـد به قبل ان يلتحق بالوظيفة ـــ وكيف وهو موظف فى حكومة تخضع للحكم الانجليزى ؟

وهناك شىء عجب ، فانه لم يشترك فى ثورة ١٩١٩ بقصائده الثائرة •

فنعلل اذن • لعل حافظا قال شعرا ولم يذعه او لعله لم ير ضرورة هذا الشعر

---

(١) حافظ ماله وماعليه ، ص ١٢٨

(٢) الديوان جـــ٢ ص ٥٩ ـــ ٦٠

بعد ما تلاحقت الاحداث واضطرت النفوس • فان كل مصرى تحول الـــــى قصيدة ثائرة • فلم تكن الثورة فى حاجة الى قصيدة حافظ •

ولكنه لم يتحمل حينما تولى الحكم اسماعيل صدقى وحكم مصر بالحديد والنار ساندوه فى استبداده الانجليز وقد جعلوه دكتاتورا يتحكم فى رقاب المصريين • فنظم حافظ قصيدة يندد فيها بالانجليز وحيادهم (١)

قد عرفناهم ياسعاد وعـــــام ... وابن الكنانة فى حماة يضـام
قل للحايد هل شهدت دماءنا ... تجرى وهل بعد الدماء سـلام
سفكت مودتنا لكم وبدا لنـــا ... أن الحياد على الخصـام لئام
ان المراجل شرها لا يتقـــى ... حتى ينفس كربهـن صمـــام
لم يبق فينا من يمنى نفســـه ... بوداد كم فوداد كم أحـــلام
أمن السياسة والمروءة اننـــا ... نشقى بكم فى أرضنا ونضـــام
انا جمعنا للجهاد صفوفنـــا ... سنموت او نحيا ونحن كـــرام
يالة للقاسطين ودسيســـة ... فى قبضتها النقض والابـــرام
لاهم أحى ضميره ليذوقهـــا ... غصصا وتنسف نفســـه الاثام
ودع عليك الله فى محرابـــه ... الشيخ والقسيس والحاخـــام

وكانت هذه القصيدة سببا فى حرمانه من وظيفته بدار الكتب • فكانـــت نحو مائتى بيت تغلى بالحقد على صدقى وسياسته •

ولحافظ قصائد ومقطوعات متفرقة كثيرة فى نواحى السياسة والوطنية يطول بنا ذكرها • فنكتفى بهذا القدر فى بحثنا الوجيز •

---

(١) الديوان جـــ٢ ص ١٠٥

مدائحه

يخطئ من يقول ان المدح فى الشعر ليس فنا ، على اعتباره ملفقا موزونا غير صادر من القلب بل يصدره اللسان

فكثير من المدح كان مبعثه القلب الراضى والنفس الشاكرة للمحسن المتفضل والفن لا يستلهم جماله الا من رضى النفس وخفقان القلب ، وقد أبدع كثير من الشعراء ابداعا بديعا فى هذا الضرب من ضروب الشعر ، حتى صار ابداعهم نماذج من البلاغة وسمو الخيال .

فابو تمام ، والبحترى ، والمتنبى ، قد جاءوا فى هذا الغرض بالمعجزات وقبلهم جرير والفرزدق ، وبشار بن برد ، ومروان بن ابى حفصة . وان اكثر الشعر العربى القديم كان مديحا .

ويقول الاستاذ احمد محفوظ : (١) فليس من الانصاف ان ننفى المديح من الشعر السامى لانه قيل للتكسب والارتزاق ، فلو نفينا المديح من الشعر الرفيع لذهبنا بشعراء العرب الفحول الى العدم وتركناهم نظاميين يرسلون كلاما مقفى لا حظ له من الفن ولا من الخلود .

ويقول الاستاذ الدكتور كامل جمعة : (٢)

كذلك يخطئ من يظن ان الامم الراقية لا تعترف بالمديح ولا تمدح به ولا تقبل من شعرائها مديحا ، فهل من خير على ابى تمام والبحترى والمتنبى حينما مدحوا ؟ وهل يكون المديح لغوا ونفاقا ان امن شاعر بمناقب انسان او بفكرة او بوطنيته فمدحه ؟ فالحق ان المدح لا خير فيه بل هو ان كان صادقا كان جزءا من تاريخ الامة وحياتها ووسيلتها الكبرى فى تطوير هذه الحياة .

---

(١) احمد محفوظ . حياة حافظ ص ١٩٠ (٢) د . كامل جمعة حافظ ماله وماعليه ص ٩٥

وقد قال تلميذه الاستاذ عباس محمود العقاد : (١)

" والذى نعتقد أن شعر المديح من افضل المقاييس لقياس حال الامة والشاعر والادب فى وقت واحد فيخطئ من يظن ان الامم المترقية لا تمدح أو لا تقبل المدح من شعرائها اذ المديح جائز فى كل امة ومن كل شاعر فلا ضير على اعظم الشعراء ان يصوغ القصيد فى مدح عظيم يعجب به ويؤمن بمناقبه ، ولا ضير على الادب ان يشتمل على باب المديح بين ابوابه الكثيرة التى يعرفها الغربيون او الشرقيون ، وانما الخلاف فى نوع المديح لا فى موضوعه على اطلاقه "

فان حافظ يمثل امته فى مديحه كما يمثلها فى قصائده الاجتماعية فهو يديح يدل على مراحل الادب والحرية القومية فى الامة المصرية مرحلة بعد مرحلة وبهذه الخصلة ايضا كان حافظ منفردا بين شعراء جيله قليل النظير .

فاذا رجعنا الى حافظ فى مديحه وجدناه فى بادى ذى بدء عندما خطا خطواته الاولى فى حياته الشعرية . " يذهب مذهب القدماء ويغلو فيه لانه كان يلقاهم تقليدا ويحاكيهم محاكاة تذهب بشخصيته او تكاد تذهب بها " (٢)

وهذا طبيعى فهو شاعر ناشئ يتخذ من المدائح المأثورة لبنات لبناء شهرته ومجده شأن أى شاعر ناشئ يريد أن يتعرف الى الشعر الجيد وأن يشعر الناس بوجوده .

ولعله من اجل ذلك كان يعمد الى المبالغة والتهويل الذى يجذب الانظار ويفغر الافواه ويشده العقول — لهذا جاءت مدائحه فى هذه الفترة المتقدمة

---

(١) عباس محمود العقاد . شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ص ١٨

(٢) د . طه حسين . حافظ وشوقى ص ١٥٧

لا روح فيها ولا حياة . (١)

فنكد في قصيدته الاولى في المدائح ـ التي قالها في تهنئة عبد الحليم عاصم (باشا) بمناسبة اسناد امارة الحج اليه ـ خالية من الروح والعاطفة والصدق .

ونجد هكذا مدائحه في الخديو والسلطان عبد الحميد والسلطان رشاد ، فانما هي مدائح مناسبات واجبة على الشعراء في ذلك العصر ، كما كانت واجبة عليهم ايام الملك فؤاد وايام ابنه فاروق يوجبها النفاق الذي شمل الجميع ولف في طياته الحكام والرعية .

وهكذا لقد مدح المرحوم ادوار السابع في تتويجه سنة ١٩٠٢ بسبب سذاجته فان احد المتذين بالوكالة البريطانية دفعه الى هذا فانساق لانه كان سهل الانقياد وهذه طبيعة فيه .

هذا ولكن في مدحه للبارودي نجد عاطفة صادقة هي عاطفة التلميذ للاستاذ فليس للبارودي يوم جاه من منفاه مال ولا جاه ولا نفوذ يدفع شاعرا يتكسب بالشعر الى مدحه لينتال من هذه الاشياء خطا .

وخاصة اذا ما تصفحنا مدائحه للاستاذ الامام محمد عبده هالتنا الجلال والروعة النابعان من اخلاص روحه وصدق شعوره .

ففي قصيدته التي يهنئه فيها الاستاذ الامام بمنصب الافتاء تظهر عاطفة الشاعر الصادقة التي تربطه بممدوحه . فهو يبدأ قصيدته مادحا نابذا المقدمة الغزلية او الطللية بل ناعيا عليها ذلك (٢)

---

(١) د كامل جمعة . حافظ ماله وماعليه ص ٩٦

(٢) الديوان جـ ١ ص ٥٠

بلغتك لم أنصب ولم اتغـــــزل ولما أقف بين الهوى والتذلـــل

ولما اصف كأسا ولم ابك مـــــنزلا ولم انتحل فخرا ولم انتمـــــل

فلم يبق فى قلبى مديحـــك موضعا تجول به ذكرى حبيب ومنـــزل

ريتك والابصار حولك خشـــــــع فقلت ابو حفص يبرديك ام علـــى

لئن ظفر الافتاء منك بفاضـــــل لقد ظفر الاسلام منك بافضـــــل

يعلق عليها الدكتور كامل جمعة قائلا : (١)

ان عناصر هذا المديح اسلامية محضة ومع ذلك فهو ليس محاذاة للشعر الاموى لان الموضوع هو الذى وجه الشاعر . وماذا يؤخذ على الشاعر فى مديحه هذا ؟ ألم يتسنم الامام منصب الافتاء وهو منصب خطير فى الاسلام ، اليس الامام استاذه وصديقه وصفيه ؟

---

(١) دكتور كامل جمعة . حافظ ماله وماعليه ص ١٠٩

مراثيـــــــه

كان لحافظ فى الرثاء نصيب اوفـر فهو يقول بنفســـه :

اذا تصفحت ديوانى لتقرأنـــى وجدت شعر المراثـى نصف ديوانى

ويحلل عنه الدكتور كامل جمعة • فيقول : (١)

فالرجل باثر النفس دائم الشكوى طهرته الكوارث فتصاعدت ايامه وليا ليه زفـــرات حارة • وكانت بيئة الرجل مضطربة العواطف مختلة الموازين • فاورثته الما محضـــا قلبا حزينا • وكانت نهاية مطافه فى دار الكتب حيث اخلد للراحة بعيدا عـــن الاندماج فى السياسة والحزبية عشرين عاما كان فيها شاعر الظروف التى تقتضيـــه قول الشعر • ورأى اصدقائه يتخطفهم الردى من حوله واحدا واحدا فكان شاعـــر الرثاء دون منازع •

هذا وان حافظا اتصل بشعبه اتصالا وثيقا متينا • وان نفسه تجاوبت مع نفوس ابناء الشعب تجاوبا جعل آلامه آلام الشعب واحدا وآلمه وآلام الشعب واحدا بـــل جعل منه مرآة صادقة لنفسه هو ولحياة الشعب الذى امتزج به فهو صورة ـ وان تكن مصغرة ـ للشعب فى آلامه وآلامه ورجائه ويأســـه فليس غريبا اذن أن يســـهـــل عليه تصوير عواطف قومـــه فيبلغ من ذلك مالم يبلغه شاعر آخر • ويجعل قراءة وستمعيه يجدون فى شعره مايجدونه فى نفوسهم من الحزن واللوعة والحسرة والاسى فاذا انتحب انتحب معه ابناء الشعب صادقين وان ذرف الدمع ذرفوه معـــه متأثرين •

---

(١) د • كامل جمعة لحافظ ماله وماعليـــه • ص ٢٢٣

هذا وحد ث ان كان من اصدقائه زعماء للشعب وقادة الامة فكانوا اذا توفوا حزن عليهم حزنا عميقا ، صور فيه حزنه من جهة وحزن الشعب من جهة ثانية . ولان نفسه كانت مراة نقية صافية للشعب فكانت ترتسم فيها الام الشعب واحزانه كما ترتسم امانيه وطامحه . فكان رثاؤه لذلك صادقا حارا وبكائه صادرا عن عاطفة صحيحة . (١)

فاسمعوا مرثيته الرائعة في استاذه وشيخه الامام محمد عبده

سلام على الاسلام بعد محمد ... سلام على ايامه النضرات

على الدين والدنيا على العلم والحجا على البر والتقوى على الحسنات

لقد كنت اخشى طوى الموت قبله ... فاصبحت اخشى ان تطول حياتي

فوا لهفي والقبر بيني وبينه ... على نظرة من تلكم النظرات

وقفت عليه حاسر الراس خاشعا ... كاني حيال القبر في عرفات

تباركت هذا الدين دين محمد ... ايترك في الدنيا بغير حماة

تباركت هذا عالم الشرق قد قضى ... ولانت قناة الدين للغمزات

ويضيف قائلا : (٢)

بكى الشرق فارتجت له الارض رجة ... وضاقت عيون الكون بالعبرات

ففي الهند وجد الصين جلد ... وفي مصر باك دائم الحسرات

وفي الشام مفجوع وفي الفرس ناد ب وفي تونس ما شئت من زفرات

---

(١) الديوان جـ٢ ص ١٤٤

(٢) الديوان جـ٢ ص ١٤٤ ـ ١٤٥

ويختتم قائلا : (١)

قفوا أيها الهلمـــاء وابكـــوا ورووا لحده قبل الحســـاب
فهذا يومنا ولنحـــن اولـــى ببذل الدمع من ذات الخضاب
عليك تحية الاسلام وقفـــا واهلية الى يوم المـــــآب

وسمعوه يرثى صديقه سعد زغلول : (٢)

كم شكوت السهاد لى يوم كنـــا بالبساتين تستعيد الشبابـــا
تنهب اللهو غافلين وكنـــــا نحسب الدهر قد أثاب وتابـــا
فاذا الرزء كان منا ببعـــــد واذا حائم الردى كان قريـــا

واسمعوه يرثى لاستاذه محمود سامى البارودى : (٣)

ردوا على بيانى بعد محمـــود انى عييت واعيا الشعر مجهـــودى
ما للبلاغة غضبى ؟ لا تطاوعـــنى وملحيل القوافـــى غـــير ممدود ؟

فانه من أروع مراثيه : قصيدته فى الاستاذ الامام . كما نجد فى قصائده فـــى رثاء مصطفى كامل بلاغة ولوعة واجادة . وان قصيدته فى سعد زغلول عامرة الابيـات وقوية ، كما نرى فى رثائه للبارودى . عاطفة صادقة وجودة الرثاء وفخامتـه .

ولكن قصائده الاخرى كان اكثرها للمجاملات فنظمها من غير عاطفة ، فجاءت فاترة الا فى النادر القليل .

---

(١) الديوان جـــ٢ ص ١٤٧

(٢) الديوان جـــ٢ ص ١٩٠

(٣) الديوان جـــ٢ ص ١٣٩

وصفـــه:

لا شك ان الوصف اسمى ضروب الشعر • فهو مجال الخيال الاكبر ولوحتـــه الفنية فاذا جاءت اللوحة تامة الايحاء متناسبة الظلال متسقة الالوان فقـــد ادى الخيال السامى الجمال كاملا •

واذا جاءت يمج بعضهـا فى بعض مبهمة الموضوع صامته المعنى ، تلا ياخـذ جمالها العين وتتغلغل فى الحس فقد قصر فيها الخيال وتخلى عنهـــا الفن المهلم •

وان حافظ مرمى من معظم الباحثين بقصور الخيال الشعرى عنده وعجزه عن التحليق فى اجواء العليا وانه مشدود الى الارض بقيود ثقيلة هى ضعف ثقافتـــه وضحولتها • ولم تلهمه الطبيعة شيئا من براعة الخيال ولا من روح الابداع •

فالاستاذ احمد محفوظ يقول : (١)

ولو نظرنا الى خيال حافظ ، الذى لا يحلق الا دانيا والذى لا يعرف الاجواء العليا لقلنا : ان حظه من الوصف كان حظا متواضعا وقد جهد حافظ ان يسمو بالوصف ولكنه وقع ولم يستطع ان يفعل شيئا •

وهكذا يقول الدكتور طه حسين : (٢)

وحافظ لم يكن عظيم الثقافة ولا عميقها فلم يكن من المكن ولا من اليسير أن يتجه الى تلك الفنون الشعرية الخالصة التى تصل بين الشاعر وبين الطبيعـــة والتى ليس للسياسة ولا للنظام عليها سلطان • فلم تكن النجوم فى السمـــاء

---

(١) احمد محفوظ • حياة حافظ ص ٢٠٣

(٢) دكتور طه حسين • حافظ وشوقى ص ٢٤

ولا الرياض في الارض ، ولا النيل ولا الصحراء تلهم حافظا شيئا . لان حافظا لم يكن شاعر الطبيعة وانما كان شاعر الناس .

ولكنه يدافع عنه دكتور كامل جمعة مدافعة غير متوفقة . (١)

ويقدم له بعض ابيات متفرقة في قصائد مختلفة يجد فيها اشراقة من اشراقات الطبيعة ونفحة من نفحاتها :

منهـــــا :

لكن عيدك يا هاس انطقـــني ... كالبدر اطلق صوت البلبل الطرب

أو فانت لهم كالشمس ما البحر انهـا ... ترد الاجاج الملح عذبا فيرشف

أو مثل : وكم لك شكوى هوى ياسمين ... لها نفثات تذيب الحجـــر

هتفت بها مرة في الهجـير ... فكاد يدب اليك الشجـــر

فيقول اخير :

وهنا نك وصف من نوع اخر في شعر حافظ وهو الذي تصدق فيه المهاجمـــة ويصح اتهام حافظ فيه بقصور الخيال . وهو الوصف خارج الطبيعة كوصفه للحلاق والطائرة مثلا . وسبب قصوره فيه عدم التجاوب او انقطاع الحس بينه وبيـــن هذا الذي يصف . واغلب الظن انه لم يصف مثل هذه الاشياء الا ليدل علـــى براعة في مسايرة التقدم والعمران ولاظهار مقدرته على الوصف ومواكبة الحضارة .

---

(١) راجع حافظ ماله وماعليه ص ٢٦٤ ــ ٢٧٣

غزلـــه وتفرقاتـــه الاخـــرى :

يجمع الباحثون الذين تعرضوا لشعر حافظ على انه لا مكان فيه للغـــزل ولا لفلسفة الجمال ، وقد آبوا أن يأخذوا مقطعاته الغزلية الطفيفة مأخـــذ الجد فهي ضئيلة قليلة لا تزيد عن ثلاث صفحات من ديوانه الضخم .

ويفسر الباحثون قلة شعره في الغزل باختفاء المرأة من حياته ، فكما نعـــرف ان شاعرنا لم ينجح في حياته الزوجية كما لا نرى اثر لامرأة اخرى في حياته ، ولحافظ فنون متفرقة اخرى ولكنها متواضعة في الكم نالكيف مثلا خمرياته او شعـــره في القصص التاريخية او اخوانياته ومساجلاتـــه .

هذا وكان لحافظ حظ في النثر ايضـــا .

فله مؤلف قصصي " ليلـــى سطيح " ، هي مجموعة من القصص تروى بلسان احد ابناء النيل ، تتحدث عن الحوادث والمشاهد .

كما ترجم كتاب " الموجز في الاقتصاد " مع مشاركة الشاعر خليل مطران كما عرب حافظ " البؤساء " لفيكتور هـــوجـــو .

شاعريته في الميزان

****

اشتهر حافظ بين الادباء والنقاد انه كان جزل الاسلوب رصينه وانه كان فوق شعراء عصره جميعا في هذا .

وان الاستاذ البشري كان يقدمه على شوقي في الاسلوب . وقد ذكره مطران عند الكلام على الشعراء فقال : " ان حافظا يقدم اللفظ على المعنى " ولا شك ان حافظا كان جزل الاسلوب فخم الديباجة في شعره ولكن هذه الجزالة وتلك الفخامة لم تنتظما كل شعره .

وقد نظم ابياتا كثيرة لا تلمس فيها جزالة ولا فخامة ، بل قد انحط فيها اسلوبه انحطاطا بعيدا . (١)

ويقول عنه الاستاذ احمد الطاهر : (٢)

وكان حافظ من اشد الشعراء حرصا على اختيار اللفظ وتذوق الجرس الذي يقع في اذنه وفي نفسه حين يختاره ، وكان حريصا ان تكون الفاظه فخمة ضخمة تحرك المشاعر وتثير العواطف وكان اشد ما يكون حرصا على ذلك في مطالع قصائده يسعى وراء اللفظ فان لم يجد فيه القوة التي تثير احتال على ذلك بالتكرار يكرر اللفظ الواحد او الجملة الواحدة مرة او اكثر من مرة ليثير السامع ويسترعي انتباهه ويجرفه معه في تياره ويملك عليه عواطفه يصرفها كما يشاء .

---

(١) احمد محفوظ . حياة حافظ . ص ٢٢٥

(٢) احمد الطاهر . محاضرات عن حافظ ابراهيم ص ٦٢

ويقول مصطفى صادق الرافعى : (١)

لاجرم كان شاعرنا عبقريا عجيب الصنعة قوى الالهام بليغ الاثر فى عصره يشبه تحولا وقع فى صورة من صور التاريخ . ولكنه كذلك فى مذاهب من الشعر دون غيرها فلم يكن معه من التمام فى فنون الشعر ما يكون به الشاعر التام او الاديب الكامل الاداة .

فانه كان يجب ان يترسل شعره بين النفس الانسانية واغراضها الكثيرة المختلفة فاذا كانت السياسة من الحياة فليست الحياة هى السياسة ولا ينبغى ان يكون شعره كله كشمس الصيف فان للربيع شمسا اجمل منها وأحب كأنها مجتمعة من ازهاره وعطره ونسيمه .

واضاف يقول : (٢)

والاجتماعيات ليست كل حقائق الحياة وهى بعد ذلك معان خاصة محصورة فى زمنها ومكانها . فالشاعر الاجتماعى شاعر فى حيز محدود من وجوه الشعر ومذاهبه واذا كان الاجتماع كل شعره فلا يسمى شعره فنا .

هذا ود كتور انور الجندى يقول : (٣)

حافظ ابراهيم احد الشعراء التقليديين ، عرف بشاعر الشعب كما اطلق عليه لقب شاعر النيل .

وكان حافظ كلفا باللفظ الجزل والصياغة ذات الجرس ، والرنين ، وكان

---

(١) حافظ الشاعر الاجتماعى . مقال لمصطفى صادق الرافعى ص ٩٨

(٢) حافظ الشاعر الاجتماعى . مقال مصطفى صادق الرافعى ص ٩٩

(٣) الشعر العربى المعاصر . د . انور الجندى ص ١٣ ، ١٤

وكان يضفى على شعره مزيدا من الروعة بطريقة القائه ، وهو احد ابناء التقليدية ، تأثر بها فى كل مظاهر شعره . فقال فى المناسبات ومدح الخليفة والخديويين ونظم فى السياسة والاجتماع والوطنية وبرع فى الرثاء واتسم شعره بطابع الحزن .

وشعره الاجتماعى ابرع فنونه فقد صور عواطف اليتامى والمساكين والمنكوبين وتحدث عن الفقر والاحسان .

وتميز عن الشعراء التقليديين بشعره النفسى فى الشكوى والخمريات والاخوانيات والمساجلات

وقد تأثر حافظ بحركة التجديد التى دعا اليها بطران ومدرستى الديوان والمهجر اما شوقى فقد لاق المدرسة التقليدية بفنها المسرحية الشعرية التى برع فيه .

ولا شك انه كان شاعرا شعبيا فى افكاره وتأثراته وطريقة اداءه ، فقد كانت قصائده تلهب مشاعر الناس ، ولعل قدرته وبراعته فى الالقاء ومراجعته لقصائده ، مع اصدقائه قبل القائها ، كل هذا أعطاه تفوقا شعبيا وليس فنيا على شوقى ، كما أحبه الناس لفقره .

كما ذكر : (١)

انه اشار حافظ الى عوامل الاجادة فى شعره : فقال : وانا اومن بأن لكل شاعر شيطانا . لانى أكاد اسمعه يهمس فى اذنى بالمعنى ، واحيانا يضرب فيغلق على وانا اقيد همساته ، بيت اكتبه فى القهوة واخر اكتبه فى القطار واخر وانا احادث الاصحاب .

---

(١) الشعر العربى المعاصر . د . انور الجندى ص ١١٦

فانـــه كان فى رأيه هذا مثل كثير عزة : (١)

قال كثير ماقلت شعرا حتى قولتـــه ، قيل له : وكيف ذلك ، قال : بينا انـا يوما نصف النهار اسير على بعير لى بالتغهيم او بقاع حمدان اذا راكب قـــد دنا منى حتى صار الى جنبى وهو يهجر نفسه فى الارض جرا ، فقال : قـــل الشعر والقاه على ، قلت : من أنت ؟ قال : انا قرينك من الجن فقلت الشعر .

هذا ويقول الدكتور طه حسين : (٢)

" ويمضى الزمن على حافظ فاذا تقليد ، يستحيل ـ لا أقول الى تجديد ـ بل اقول الى نضج غريب وقوة بارعة وشخصيته تفرض نفسها على الادب فرضـــا "

ويقول المحرتى : (٣)

ان حافظ ابراهيم فى جملته ثمرة ناضجة من ثمرات الثقافة الكلاسيكية ، وانـــه تميز بشعره الوطنى والاجتماعى وأسلوبه المباشر وفى كثير من شعره جزالة وحيويـــة وجل شعره ان لم يكن كله من عمل الوعى وليس للعقل الباطن ولا الوحى الكامـــن اثر فيه ، وذلك لان حافظا كان من الشخوص الخارجية او مايسمونهم وتبعا لهذا نجد جـــل صوره حسيـــة مادية حتى فى قصائده الوجدانية المعتبره .

وقد تميز حافظ بشعره الوطنى والاجتماعى ، مافى ذلك ريب ، فهو شـــاعر المجتمع فى جيله ، وله ميول ديمقراطية خليقة بالاعتزاز ، وقد كان يلوذ فى شعره السياسى الى المهدئة تحت تأثير البيئة المتناقضة وضغط الظروف العاتية المتنوعة

---

(١) راجع اخبار كثيرعزة ، الاغانى للاصفهانى جـ٨ ص ٧١

(٢) د طه حسين ، حافظ وشوقى ص ١٩٥

(٣) مصطفى عبد اللطيف المحرتى ، الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث ص : ١٩١ ـ ١٩٢

ويتجلى تهادنه في مثل قصائده " وداع كرومر " والى " معتمد بريطانيا " وتهنئة للسلطان عبد الحميد ، ومع تهادنه هذا ، فانه لم ينس بلاده والمطالبة بدستورها في اوقات حرجة .

وقد نعى عليه بعض الادباء والنقاد هذا التهادن ، فان الاديب محمود شـ محمد شاكر يحمل خملة شعواء وينددد بتقريعه للشعب (١) .

وصيرفي ايضا يهاجم عليه (٢) في قصيدته التي وجهها الى السلطان حسين كامل داعيا اياه الى التعاون مع الانجليز فيقول " وكان جديرا بحافظ أن يكون اكثر وطنية وشعورا بالاباء او يسكت ان لم يجد مجالا للقول .

ويعلن على هذه النقدات مصطفى السحرتي (٣)

بان في هذه النقدات كثير من الظلم لانها تنظر نظرة هذا الجيل لجيل مضى وعصر رهيب اسود كان يجثم فيها الاحتلال بمخالبه على صدور البلاد وقلبها . ويكفي حافظا فخرا انه استطاع في هذا الظلام ان يتحد شبذكر مصر وان ينطق بأمانيها ...

وان حملة حافظ على الشعب هي حملة توجيه وتقويم واصلاح لا حملة تنديد واذراء وتحقير ، ومثل هذه الحملات تدل على شدة وطنيته ومحبته لبلاده ، ثم يلخص قائلا : (٤)

واما شعره الاجتماعي فيعد مفخرة من مفاخره ، وهذا الضرب من الشعر

---

(١) مجلة " الكتاب " اكتوبر ١٩٤٧

(٢) حافظ وشوقي للصيرفي ص ٨

(٣) مصطفى عبد اللطيف السحرتي ، الشعر المعاصر ص ١٩٤

(٤) نفس المصدر السابق ص ١٩٦ ـ ١٩٩

شعره ، ما هو محلى بحت لن يعمر الا كحدث تاريخى ومنه ما هو باق على الزمن بقاء ما فيه من حقائق .

وهو يرى شعره الوجدانى سواء أكان غزلا ام رثاء بارد العاطفة او مفتعلا ومتراوحا بين الجودة والرداءة فى الاداء . واما معانيه فقد تنيل كثيرا وتحمل قليلا وموسيقاه قد تحلو وقد تجمد واما شعره الوطنى والاجتماعى والوصفى فهو غرة شعره ووليد شخصيته وهوى نفسه ولهذا قد علا فى اغلبه علوا كبيرا .

ويقول الاستاذ عبد الرحمن الرافعى : (١)

هو صنو شوقى فى احياء دولة الشعر . وان حافظا يمتاز عنه بأن نشأته وحياته كانت شعبية فى حين كانت نشأة شوقى وحياته ارستقراطية فكان حافظ اقرب الى روح الشعب ومشاعره واقدر على تصوير الامه التى شاركه فيها واكتوى بلهيبها فكان لذلك ابلغ فى التعبير عنها وكانت عباراته اسهل واقرب الى ادراك معانيها من عبارات شوقى لانه كان يحس احساسا قويا وانه يخاطب الشعب فى جميع طبقاته ومجموع مثقفيه وقارئيه . واضفت الوطنية على شعر حافظ هالة من العظمة والمجد فقد كان بلا مراء خير ترجمان للشعب فى احاسيسه وآماله وخير مواس له فى مآسيه والامه .

وكان حافظ شاعرا بطبعه ظهرت مواهبه الشعرية وهو فى السادسة عشرة من عمره لم يتلقها من معلم او اديب ولا تعلمها فى المدارس التى انتصم بها ، بل كانت وحى الالهام والسليقة فكان يقول الشعر وهو فى هذه السن المبكرة ، وان حافظ يمتاز فى شعره بقوة البلاغة واشراق الديباجة وطلاوة الاسلوب والروح الخطابية لقد انصف شوقى اذ قال فى رثائه (٢)

---

(١) عبد الرحمن الرافعى شعراء الوطنية ص ١٢٢ ــ ١٢٤

(٢) الشوقيات ، احمد شوقى . الجزء الثالث ص ٢٤

يا حافظ الفصحى وحارس مجدها ... واما م من نجلت من الهلفاء

مازلت تهتف بالقديم وفضله ... حتى حميت امانه القدماء

جددت اسلوب الوليد ولفظه ... واتيت للدنيا بسحر الطائى

ويؤيد شوقيا الاستاذ الدكتور زكى المحاسنى اذ يقول (١)

لقد بقى حافظ ابراهيم عفيفا على الفصحى وعاش عمره يناضل عنها ، ويعود اليها والى معشره من افذاذ الكتاب والشعراء الذين كونوا المرحلة الاولى والمتوسطة من ادبنا الحديث ، الحفاظ على لغة العرب فى مصر وديار العروبة .

ويقول دكتور ابراهيم العريض : (٢)

واما حافظ فلم يفارق منهج العباسيين ولا يؤثر قله فى الشعر تجديد ذو بال الا آن تكون هذه المراثى والوطنيات التى اظهر فيها جزع الشعب ، واشفاقه من مصيره السياسى ، فلا يعدو شعره من آن يكون جسرا انتقال كشعر الرصافى والزهاوى معاصريه فى العراق .

والاستاذ عبد الفتاح ابراهيم يتهم شاعرنا بالسرقة : (٣) فيقول : قد اغتصب حافظ بعض شعر المتقدمين فنقل صوره الى قصيدته ، وحقا ساق لنا طائفة من هذه الصور يطول بنا نقل هذه الصور ومراجعتها .

ويكتب حسن السندوبى عن اراء الادباء فيه فى كتابه الشعراء الثلاثة (٤)

يقول محمد بك ابراهيم بك هلال : فان شعره فسيح وحدة وفذ دهره ، فى

---

(١) د . زكى المحاسنى نظرات فى ادبنا المعاصر ص ٥٢

(٢) ابراهيم العريض . الشعر وقضية فى الادب العربى الحديث ص ٦١

(٣) محمد عبد الفتاح ابراهيم . شعراؤنا الضباط ص ٩١

(٤) الشعراء الثلاثة حسن السندوبى ٣٥٠ ــ ٣٥٢

التفنن بضروب النظام ، والاقتدار على غريب المعانى ، وقلما خلاله شعر من نكته ادبية ، او نادرة تاريخية او فائدة علمية .

قال المنفلوطى :

١ ــ حظه اكبر من قدره وحيلته اشعر من شعره فهو صالغ ماهر يجمع الذهب قطعا صماء ، ويعرض صور احصناء الا انه يتعمل الشعر تعملا يكاد يخفى اثره بين حلاوة اللفظ وطلاة الاسلوب .

٢ ــ بلغ الغاية القصوى فى بؤسائه ثم حاول ان يكتب بعد ذلك فما صنع شيئا .

٣ ــ شاعر من شعراء الطبقة الاولى وكاتب من اوائل الكتاب وله فى باب الاجتماع مالا يلحقه فيه لاحق وشعره سائر فى جميع الاقطار العربية يمتاز باقتداره على الجميع بين السلاسة والرقة والجزالة والفخامة وهو احد الذين احيوا موات اللغة العربية باستعمال غرائب مفرداتها ونادر تراكيبها فى شعره ونثره ، ولا أعرف بين ادباء العصر احصح منه ذوقا فى التمييز بين جيد الكلام ورديئه .

وقال مطران عن حافظ :

يطرق الموضوع فى الغالب من جوهره وربما نظم اكثر الابيات قبل المطلع شأن الصائغ القدير الذى يبدأ بأصعب ما بين يديه اما ان تهمه عزيمته دون الاجادة بعد ذلك علما انا لكلام ان يأتيه فى اى مقام طبعا ولو بعد حين .

له غرام باللفظ لا يقل عن الغرام بالمعنى ، وفى اقصى ضميره يؤثر البيت المجاد لفظا على المجاد معنى فاذا فاته الابتكار حينا فى التصوير لم يفته الابتكار فى التصوير . أولع بالاجتماعيات فقال واجاد ماشاء .

اما شعره فشعر البيان وان من البيان لسحـــرا ٠

وقال محمد المويلحـــي :

خير الشعر ماكان لفظه فصيحا ومعناه حسنا ، وتركيبه جزلا ، وكان خاليـــا من التنافر ، سليما من الغموض ، بعيدا عن التعقيد لتقبله الاذن أحســـن قبول ، ويقصر طريقه الى النفس ، ويخف على القلب ، فيكون تاثيره شديدا ووقعه بليغـــا ٠

تـــزين معانيـــه الفاظـــه والفاظـــه زائنات المعانـــي

ومن هـــذا القبيـــل شعـــر حافـــظ ابراهيـــم ٠

" الختـــــام "

هذا واقدم خلاصة دراستى الطويلة مجسدة فى شكل هذا البحث • وهـــذا كل ماكان لدى من مطالعات وقراءات وضعته فى صفحات مهذبة وسطور متواضعـــة كتبت خلالها ماجمعته من هنا وهناك ، واضفت اليه من اراء وتعليقات وهـــذا فى تركيب جديد وترتيب مستحدث • وحاولت ان اقدم شيئا فيه من الابتكـــار والجدة فى صورة انيقة رائعـــة •

مع الاعتراف بتقصيرى وامكان الخطأ • فلن اقول ان هذا البحث مكتمـــل بجوانبه ومحتو على كل ماكان يجب ان يكون من محتوياته •

وكفانى انى بذلت جهدى • واردت الصواب والحق والسداد •

ولعلى وفقت

والســـلام خير ختـــام

فخـــر الدين احمد

المراجع

١ ــ ابراهيم العريض : الشعر وقضيته في الادب العربي الحديث ط ١٩٥٥ منشورات صوت البحرين .

٢ ــ احمد محفوظ : حياة حافظ ابراهيم . مؤسسة نصار للتوزيع والنشر .

٣ ــ احمد الطاهر : محاضرات عن حياة حافظ . ط ١٩٣٥

٤ ــ احمد امين : مقدمة ديوان حافظ . مطبعة دار الكتب ١٩٣٧

٥ ــ احمد حسن الزيات : ذكرى حافظ . الرسالة عدد ١٤ يوليو ١٩٣٧

٦ ــ احمد شوقي : شوقيات الجزء الثالث دار الكتاب العربي بيروت لبنان

٧ ــ احمد عبيد : ذكرى الشاعرين . مطبعة الترقي بدمشق

٨ ــ اسماعيل يوسف : وحي الادباء وكتاب شعراء

٩ ــ الاصفهاني : الاغاني . ط بولاق

١٠ ــ حافظ ابراهيم : ١ ــ الديوان دار الكتب

١١ ــ حافظ ابراهيم : ٢ ــ ليالي سطيح . مطبعة حمد مطر القاهرة

١٢ ــ حسن السندوبي : الشعراء الثلاثة . ط : ١٩٢٢ م

١٣ ــ حسن كامل الصيرفي : حافظ وشوقي . مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٤٨ م

١٤ ــ داود بركات : ابوللو ١٩٣٣ م

١٥ ــ روفائيل مسيحة : حافظ ابراهيم الشاعر السياسي . مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٤٧ م

١٦ ــ زكي مبارك : مقال له في كتاب ذكرى الشاعرين لاحمد عبيد .

١٧ ــ زكى المحاسنى : نظرات فى ادبنا المعاصر وزارة الثقافة والارشاد القومى ١٩٦٢ م

١٨ ــ سامى الدهـــان : شاعر الشعب سلسلة اقرأ دار المعارف ٠

١٩ ــ شوقى ضيف : دراسات فى الشعر العربى المعاصر

٢٠ ــ شوقى ضيف : الادب العربى المعاصر فى مصر ٠ ط : ٢ دار المعارف

٢١ ــ شوقى ضيف : مقال : دراسة تاريخية لشعر حافظ مهرجان حافظ بالاسكندرية (كتاب المهرجان) المطبعة الاميرية القاهرة ط : ١٩٥٧ ٠

٢٠ ــ طه حسين : حافظ وشوقى ٠ مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٣٥ م

٢١ ــ عباس العقـاد : شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى ٠ مكتبة النهضة ط ٠ ٣ سنة ١٩٦٥ ٠

٢٢ ــ عبد العزيز البشرى: السياسة الاسبوعية ٢ سبتمبر ١٩٣٢

٢٣ ــ عبد الرحمن الرافعى: شعراء الوطنية ٠ الدار القومية للطباعة والنشـــر الطبعة الثانية ١٩٦٦ ٠

٢٤ ــ الشيخ عبد الوهاب النجار: مجلة ابو للو ١٩٣٣

٢٥ ــ عبد الحميد سند الجندى: حافظ ابراهيم شاعر النيل

٢٦ ــ عمر الدسوقى : فى الادب الحديث دار الفكر العربى ط ٠٥ ١٩٦٤

٢٧ ــ كامل جمعة : حافظ ماله وماعليه ط : ١ ١٩٥٩ م

٢٨ ــ كتاب المهرجان الفضى لذكرى حافظ المطبعة الاميريـة ١٩٥٧

٢٩ ــ مجلة الكتاب : اكتوبر ١٩٤٧

٣٠ ــ محمد حسين هيكل : السياسة الاسبوعية ٢ سبتمبر ١٩٣٢ م

٣١ ــ محمد صبرى : شعراء العصر مطبعة الامة ١٩١٠ م

٣٢ ــ محمد عبد الفتاح ابراهيم : شعراؤنا الضباط ط ١٩٣٥

٣٣ ــ مصطفى صادق الرافعى : كلمات عن حافظ الرسالة ١٩٣٥

٣٤ ــ مصطفى صادق الرافعى : حافظ الشاعر الاجتماعى (ذكرى الشاعرين) ١٣٥١ هجرية دمشق

٣٥ ــ مصطفى عبد اللطيف السحرتى : الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث مطبعة المقتطف والمقطم ١٩٤٨ م

الفهـــرس

١ ــ هذا حافـــظ ٢

٢ ــ كلمة البحـــث ٣

٣ ــ مولـــده ٥

٤ ــ حياتـــه ٧

٥ ــ شخصيته ، واخلاقه ، وثقافتـــه ٢١

٦ ــ بيئته الفكريـــه ٤٢

٧ ــ بيئته الاجتماعية ٤٥

٨ ــ اجتماعياتـــه ٥٢

٩ ــ حافظ شاعـــرا ٨٢

١٠ ــ شاعريته فى الميزان ٩٧

١١ ــ الختـــام ١٠٦

١٢ ــ المراجـــع ١٠٧

١٣ ــ فهرس البحـــث ١١٠